دكتور ابراهيم جمعة

أبو زيد السروجي

الأديب المحتال بالثوبين والعكازة والجراب



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

دكتور ابراهيم جمعة

أبو زيد السروجي

الأديب المحتال بالثوبين والعكازة والجراب

الاعيبه ...

توبته ...

موته وتأبينه ...

رجعته ...

١٩٤٩

الناشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

Abū Zayd al-Sarūjī

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٢٣	متفيقن	متّفقين	٥٠	١٨	خطأً	خُطى
١٠	١	نرى	نَرَ	٥١	٨	من لَه	مَن لَهُ
١١	١١	هذه الصدقات هى	هذه هى الصدقات	٥١	٨	ملكُ	مُلْكُ
١٢	٧	الزُّبا	الزُّبى	٥٦	٥	غِيّه	غَيِّه
٢١	٢٠	قرقدان	فرقدان	٥٧	١٩	أجِرْم	أجْرَمَ
٢٢	٧	اقترفتَ	اقترفتُ	٦١	٦	التنّويه	التّنويه
٣٣	٩	غُيّر	غـير	٦٢	٩	دنيّة	دَنِيّة
٣٤	١٠	مُنحت	مَنحت	٦٢	١٣	الهَرَج	الهَرْج
٣٩	٧	بَجُرّ	يَجُرّ	٦٢	١٤	المَرَج	المَرْج
٣٩	١٠	شذَّرا	شذْرا	٦٤	١٦	لأَخراه	لِأُخراه
٤١	١١	غِيّ	غَيّ	٧٤	٢	تعوذهم	تُعوِّذهم
٤٣	٥	حلّفنى	خلّفنى	٧٥	١٩	خذاق	حُذّاق
٤٤	١٠	لامولاى	يامولاى	٨٠	٥	بلوتُم	بَلَوتُم
٤٤	١٥	خَلَقَ	خَلِق	٨٧	٥	فصَفَت	فصَفَحَت
٤٦	٨	العِدَى	العِـدا	٩٧	١	مجتمعان	مجتمعين

* * * * * * * * * *   * * * * * * * * * *

يا ليت شعرى أدهرى   أحاط علما بقدرى

وهل درى كُنْهَ غورى   فى الخَدْع أم ليس يدرى

كم قد قمرْت بنيه   بحيلتى وبمكرى

اصطاد قوما بوعظٍ   وآخرين بشعر

واستفزُّ بخلٍّ   عقلاً ، وعقلاً بخمر

ولو سلكتُ سبيلاً   مألوفةً طول عمرى

لخاب قِدحى وقدحى   ودام عُسرى وخُسرى

« السَّروجى »

تقـــديم

بقيت مقامات الحريرى منذ وضعها مؤلفها فى فواتيح القرن السادس الهجرى درة أدبية مصانة عن الابتذال ، لا يتداولها غير الخاصة وخاصة الخاصة من الأدباء ، رغم ماتضمنته من الفكاهة ، وما حفلت به من صنوف الملح الأدبية والطرائف الاجتماعية . وظل قراؤها على هـذه القلة ، بسبب كثرة غريبها ، والأفراط فى تسجيعها ؛ ولم يقدّر للكثرة الغالبة من القارئين أن تتذوق «المقامات» ، بما انطوت عليه من أفانين وملح وفكاهات — إذ لاسبيل إلى الاستمتاع بها بغير الاستعانة بالتفاسير ، وأجالة النظر وأجهاده صعوداً وهبوطاً بين المتون والشروح . . .

وقد يكون من الخير أن تنقل هذه المقامات إلى أسلوب النثر ، يزال منها الجناس والتسجيع ، لتغدو قطعة أدبية شعبية تصور الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى فى كثير من أقطار العالم الأسلامى ، ولـكنها حينئذ تفقد الـكثير من بهائها الذى صيغت فيه ، وتنزل من عليائها إلى حيث لم يرد لها الحريرى ، واذن فقد يكون من الخير أيضاً أن تظل كما هى مصانةً عن الابتذال — ولو بقيت عزيزة المنال على كثيرين . . .

فاذا ماكان الأمر كذلك ، فـكيف السبيل إلى تعريف الجمهرة الغالبة من القراء بمُتع المقامات ؟ وكيف اجتذابهم إلى حيث «أبي زيد السروجى» بطل هذه المقامات ، وقطب الرحى فيها ؟

أليس هناك من سبيل إلى تقريب أدب المقامات من متناول الجماهير ؟

فكرت فى ذلك مليًا ، فأوصلنى التفكير إلى حل وسط ، لا يذهب برواء المقامات ، ولا يحرم الجمهرة القارئة من هذا اللون الفذّ من ألوان الأدب العربى المبكر . . .

جلت فى مقامات الحريرى ، باحثاً عن مواقف أبى زيد ، فوقعت عليه فى سهولة ، فى أكثر من مناسبة ، وصحبته ، واستمتعت بصحبته زمنا ، وراقتنى حيله وألاعيبه ، وأردت أن أمتع بها غيرى ، ممن لا جلد لهم على الغوص فى المقامات ، فأنا أقف فى المهمة الحالية موقف الوسيط ، وتبعتى فى الأمر كبيرة . كان علىّ أن أحرص على أسلوب الحريرى لأبقى له صفته وطبيعته ، كما كان علىّ — رغم أنفى — أن أزيل منه بعض غريبه ، بالحذف تارة وبالأبدال أخرى . . . والذى يقارن بين ما نقلت وبين أصله فى المقامات ، يدرك أمرين اثنين : الأول ، أننى جهدت أن أنقل بعض مواقف أبى زيد كما صوّرها الحريرى لفظا ومعنى جهد الطاقة ، والثانى أننى هيأت المواقف على نحو تستطيع أن تستسيغه الأغلبية القارئة ، دون إرهاق أو إعنات . . . وإن كانت قد بقيت بعض الشىء فوق مستوى الفهم العادى — فذلك ما لم أجد منه بدا على كل حال .

وأنا إذن ، قد قمت بدور الوسيط الذى أدنى بعضا من أدب الحريرى إلى جمهرة القارئين ، أخرجت هذا البعض إخراجا جديدا ، ونحوت فيما أضفت إليه ، نحو الحريرى نفسه . ويستطيع المتتبّع أن يقع من فوره على مواضع التغيير والتحوير ، والحذف والأضافة ، بلا حاجة إلى لوم أو غضّ مما سعيت إليه ، وحسبه أن يعلم أننى رغبةً فى إمتاع القارئ العام ، نزعت هذه الصور المختارة من أماكنها نزع المترفق ، ووضعتها فى إطارات من صنعى ، وخرجت بها من معرضها الخاص إلى معرض عام ، يستطيع أن يراها فيه كل إنسان .

تلك مهمتى فى كثير مما أتناوله ، وهى مهمة تتفق مع طبيعة قصدى فى الحياة — أريد دائما أن أجلى الغامض ، وأزيل الحجب عن بعض الكنوز الأدبية والفنية — لتصبح من حق الناس أجمعين .

° ° °

ثم زدت بعد ذلك فتصورت أحباء « السروجى » والمعجبين به ، قد أجمعوا أمرهم بعد موته على تأبينه وتعديد مناقبه ، فأبنوه « فى البصرة » بعد حين من وفاته ، أفراداً وجماعات ، كلٌّ بما عرف عن الشيخ الذى لم يلق الناس بوجه واحد ، يوما واحدا من أيام حياته المليئة بالمغامرات ، حتى كتبت له التوبة آخر الأمر فى جامع البصرة .

° ° °

ثم زدت أكثر من ذلك فتصورت « أبا زيد » قد رجع إلى هذه الدنيا وجال معى فيها ، فشاهد خلقها فى أيامنا ، وقرن ذلك إلى ما كان فى أيامه ، فحدثنى وحدثته وسره من الدنيا فى أيامنا أمور ، وساءته أمور . . .

تلك هى عودة أبى زيد ، الذى مات وفى نفسه إلى الدنيا حنين ، وفى آذانه من صخبها طنين — أجملتها فى آخر الكتاب ، لأفصلها فى كتاب آخر بإذن الله .

ج ٠ ١

القاهرة فى أغسطس ١٩٤٩

الحريرى وأبو زيد السّروجى

أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى، واضع المقامات الحريرية المنسوبة إليه، أحد فطاحل الكتاب فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى، عاش فى البصرة واختلف إلى بغداد، وغشى مجالس الأمراء والوزراء، وقرب بأدبه وفطنته من قلب الوزير العباسى، شرف الدين أبى نصر أنوشروان بن خالد القاشانى، وزير الخليفة المسترشد. يقال صنّف الحريرى مقاماته فى البصرة، ورحل بها إلى واسط، ثم إلى بغداد، بمشورة من الوزير المذكور شرف الدين أبى نصر القاشانى.

ولقد ذاع ذكر المقامات الحريرية على أثر تصنيفها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى، لأنها ظهرت فى عصر كانت فيه سوق الأدب كاسدة. وفى مقدمتها يعترف مؤلفها «الحريرى» بأنه حاكى فى أسلوبها سلفه بديع الزمان الهمذانى، صاحب المقامات المعروفة باسمه، وترسّم طريقته فى الرواية، وإن قصر دونه — فيما يقول — فى بلوغ الغاية.

وعدّة المقامات الحريرية خمسون، «تحتوى على كثير من جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، ملئة ببدائع الآيات، ومحاسن الكنايات، جمعت، كما وصفها واضعها، بين الأمثال واللطائف والفتاوى والأحاجى والرسائل والخطب والمواعظ والأضاحيك، أملاها مصنفها على لسان «أبى زيد السّروجى» مسنداً روايتها إلى «الحارث بن همام». وقد جاءت المقامات فى جملتها مستغلقة المعانى على العرب — بله الأعاجم —، مفرطة فى البديع، مسرفة فى التسجيع، فاذا

ما غصتَ فيها ، واستجليتَ معانيها ، أدركت الطريفة المستملحة ، والنادرة المستعذبة ، وتقلبتَ فى المقامة الواحدة بين هذر القول وجدّه ، وانتقلت فيها بين رياض النثر وبساتين الشعر — كل ذلك من صوغ الحريرى ، وفيض خاطره وقوة عارضته .

وأعجب ما فى هذه المقامات غير أسلوبها الذى صيغت فيه ، تلك المواقف التمثيلية الرائعه التى هيأها الحريرى لبطل مقاماته أبى زيد « السروجى » نسبة إلى سروج من أعمال العراق — قيل أبو زيد السروجى هذا هو « المطهر بن سلار » النحوى البصرى الذى صحب الحريرى واشتغل عليه بالبصرة وتخرج على يديه وروى عنه . ويقال كذلك إن شخصيته من محض نسج خيال الحريرى ، إذ كان لا بد له ، وهو يضع مقاماته ، على نسق مقامات البديع الهمذانى ، من خلق الشخصية التى تقف فى مقامات الحريرى موقف « أبى الفتح الاسكندرى » فى مقامات الهمذانى . وفى هذه الشخصية الأخيرة يقول الحريرى عنه فى تقديمه لمقاماته « إنه مجهول لا يعرّف ونكرة لا تتعرّف »

ويظهر أبو زيد السروجى فى المقامات رجلاً فصيح اللسان ، كثير التندّر بارع الحيلة ، لا يلتقى بالناس ، ولا تقع عليه العين ، إلا متحدثا أو واعظا أو شاكياً أو مستجدياً أو مختصما مع ولده أو زوجه . فاذا ما سيق إلى مجلس القضاء ، خيّل إليك أنه الخاسر ، ثم لا تلبث أن تراه قد استلهم بديهته وجمع خواطره واستجمع حجّته ، ونفذ إلى نفس السامع والقاضى حتى بلغ شغاف القلب ، سلاحه فى الكثير الغالب شكاية الحال ، وتهويل المآل ، يستميل بهما هوى النفوس إلى جانبه ، ويتغلب بسلاحهما على صاحبه . . .

ومن عجيب أمر « السروجى » ، أنه كان فى ذلك الزمن المبكر يحتال بأدبه بطريقة « مسرحيّة » بارعة ، فقلما ظهر مع خصمه أمام القاضى إلا كانا متآمرين متفيقن على استلاب القاضى عطفه عليهما معا ، أو شيئا ينالانه من

مال الصدقات ! ولم نرى السروجي يوما عجز عن بلوغ غايته فى هذا المجال . وقد بلغ من مهارة الحريرى فى تكييف شخصية أبى زيد ، أن جعله على ضعف جانبه وهزال قضاياه ، يتفوّق بقوة بيانه وطلاقة لسانه على خصمه ومناظره ، وينسلت من الموقف الحرج انسلات الشعرة من العجين !

ولم تكن ألاعيبه لتنكشف على كل حال — إلا بعد فوات الوقت والظفر بما يريد .

والذى يقرأ مقامات الحريرى ، يرى شبها قويا بين ألاعيب السروجي وألاعيب المحتالين فى أيامنا على « الطريقة الأمريكية » — فهؤلاء يتظاهرون بالاختلاف ، ويفتعلون الشجار ، ليقع فى شركهم من يقع ، ممن يروم إصلاح ذات البين — فلا يكون نصيبه غير البوار ، فيخسر — ويفوز المختصمون !

وإن الإنسان ليعجب حقا كيف استطاع الحريرى أن يلم بطبائع الناس وأعرافهم وعاداتهم فى كثير من بقاع العالم الإسلامى ، وأن يجعل من بطل المقامات أبى زيد السروجي جائلا لا يكل له عزم ، ولا تفترُ له همة ، ومتحدثا لا يجارى ، ومتندّرا لا يبارى ، ومُلغّزا لا يشق له غبار ، وعالما بمسائل الفقه والنحو يقل ضرباؤه ، وهو فوق ذلك كله صاحب مقدرة عجيبة على مواجهة الخلق ، فى أقطار متعددة ، يخاطبهم فيما يطيب لهم ، ويشوقهم بسحر حديثه ، يدرك ميولهم ، ويشبع أهواءهم ، وينتزع من كل شخص كامن إعجابه بما يفعل وبما يقول . . .

. . .

مَعَ السَّرُوجِي فِي سَاحَةِ القَضَاءِ

(١)

أبو زيد السروجي وزوجته يختصمان الى قاضى الاسكندرية

اختصم أبو زيد السروجي مع زوجته يوما فى الاسكندرية ، فقصدا إلى قاضيها ، يبغيان عنده فضّ النزاع .

(عند قاضى الاسكندرية عشية يوم عصفت رياحه وهطل مطره ، وقد أحضر القاضى لديه أموال الصدقات ، ليوزعها على ذوى الحاجات)

القاضى : [لأمين بيت المال]
يا أبا مريم : إن هــذا يوم قرّ يحسن فيه أن توزع الصدقات ليكتسى العارى ، ويشبع الجوعان . . .

أبو مريم : مولاى ، هذه الصدقات هى ! أخرجتها من بيت المال ، وأعددتها كومةً كومة ، وجعلتها طوع أمرك ، ورهن إشارتك . . .

القاضى : [للحارث بن همام]
مرحبا بالأديب الأريب والمحدّث الراوية ، إنى والله إلى حديثك لجدّ مشوق ، لو لا ماترى من كثرة الوافدين ، واختصام المختصمين . . .

الحارث : قديماً قالوا : لو أنصف الناسُ استراح القاضى . . .

القاضى : [للحارث] هيهات للقــاضى أن يستريح ! ــ أطرفنا بعجيبة من عجائب أسفارك ، وغريبة من غرائب أسمارك . . .

الحارث : لقد بلوتُ يا مولاى من العجائب ما لم يره الراءون ولا رواه الراوون ، ومن أعجبها ــ ما عاينته فى تجوالى ، بين فرغانة وغانة أخوض الغمار ، وأجنى الثمار ، واقتحم الأخطار .

القاضى : إيه ياحارث ! إن لحديثك حلاوة ولرَويِّك طلاوة ... سماع ، سماع !

(يسمع ضجيج على باب القاضى ... ، مختصمان يتشادان ، وجمهور من الناس يتبعهما. شيخ في أثواب بالية تجره إلى ساحة القاضى امرأة شديدة البأس ، عارية الرأس)

أصوات نساء : هيّا ادفعيه ! ... [المرأة تدفعه وهى تقول] تقدّم ! .. فقد بلغ سيلى الزُّبا .

أصوات رجال : أقدم ياشيخ ، لاتبال .. ! أفرغ ما لديك ، فقد عدَا النساء على الرجال ، حتى طفح الكيل، وانهمر السيل ... أقدم !

الشيخ : [فى صوت متهدج ينم عن إعياء شديد ، يردد — وهو يساق إلى حضرة القاضى] تالله — وبالله :

ما المكرُ بالمُحْصَنَاتِ من خُلُق
ولا شعارِىَ التمويهُ والكَذِبُ

المرأة : [للقاضى وقد مثلت مع زوجها أمامه]

« أيّدَ الله القاضى — وأدام به التراضى ...

« انى امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة

« وأشرف خؤوله وعمومه، شيمتى الصَّوْن ، ولزوجى نعمَ العَون ، بينى وبين جاراتى بَون . كان أبى إذا خَطَبَنى بُناةُ المجد ، وأربابُ الجدّ

« سكّتهم وبكّتهم — واحتجّ بأنه عاهدالله ألا يصاهر غير ذى حِرفة ... فقيض القدرُ لنصبى ووصبى ، أن حضر هذا الخُدَعةُ نادى أبى ، وادعى أنه طالما نظم درّةً إلى درّه ، وباعهما (بمبلغ وقدره) !

« فاغترَّ أبي بزخرف (مقالِه) ، وزوجنيه قبل اختبار حاله ...

« (فلما) رحَّلني عن أناسي ، (وأوقعني) في أسْرِه

« وجدتُه قُعدةً نُوَمة . . . .

« وكنت صحبتُه برياش ، وزيٍّ وأثاث . . . .

« فما برح يبيعه ، ويتلف ثمنه

« حتى مزَّق مالي بأسره ، وأنفق ما لي في عُسره ...

« فلما أنساني طعمَ الراحة ، قلت ياهذا أنهض للاكتساب ببضاعتك

« واجتنِ ثمارَ براعتِك .

« فزعم أن بضاعته رُميت بالكساد ، لما أصاب الأرضَ من الفساد

« ولي منه سلالة (لا تجف) لها من الطوى دمعة

« وقد قدته إليك ، وأحضرته لديك — لتعجم عودَ دعواه

« ولتحكم بيننا بما أراك الله . . . »

القاضي : [للشيخ ، وقد أخذه العجب من شدة عجز الرجل وسوء حاله]

ياشيخ : « لقد وعَيْتُ ما قصَّته زوجُك . . .

« فبرهن الآن عن نفسك

« وإلا كشفتُ عن (أمرك)

« وأمرتُ بحبسك ! »

الشيخ : [بعد وجوم وإطراق ماكرين] أيها القاضي !

اسمع حــديثي فأنه عَجَبُ ... يُضْحِكُ من شَرحِهِ ويَنْتحِبُ

أنا امرؤٌ ليس في خصائصه ... عَيْبٌ ولا في فَخَارِهِ رِيَبُ

سَرُوج داري التي وُلدت بها ... والأصلُ غسّانُ حين انتسب

وشُغليَ الدرسُ والتبحُّر فى العلم طِلابى ، وحبّذا الطَّلبُ
ورأس مالى سحرُ الكلام الذى منه يصاغ القريضُ والخُطبُ
أغوص فى لجّة البيان فأختارُ اللآلىء منها وانتخبُ
واجتنى اليانعَ الجنىَّ من القول ، وغيرى للعود يحتطبُ
وآخذُ اللفظَ فضّةً فاذا ما صغتُه قيل إنّه ذهبُ
واليومَ يامن إليه يُحتكَمُ أكسد شىء فى سوقه الأدبُ
لا عِرضُ ابنائه يصان ، ولا يرقبُ فيهمُ إلٌّ ولا نسبُ
كأنّهم فى (ديارهم) جِيَفٌ يبعُدُ من نَتْنِها ويُجتنبُ
فحار لُبّى لما منيت به من الليالى وصَرْفُها عجبُ
وضاق ذرعى لضيق ذات يدى وساورَتنى الهموم والكُرَبُ
وقادنى دهرى المُليمُ إلى سلوك ما يَسْتَشينه الحَسَبُ
فبعتُ حتى لم يبق لى سببٌ ولا متاعٌ إليه انقلِبُ
وادّنت حتى أثقلَت كاهلى بحمل دَين من دونه العطبُ
ثم طويت الحشا على سَغَب خمساً ، فلما أمضّنى السّغبُ
لم أرَ إلا جهازَها عَرَضاً أجول فى بيعهِ واضطربُ
فجلْتُ فيه والنفسُ كارهةٌ والعينُ عبرى ، والقلبُ مكتئبُ
وما تجاوزت إذ عبثت به حدّ التّراضى — فيحدثَ الغَضَبُ
فأن يكن غاظها توهُّمها أن بنانى بالنظم تكتسبُ
أو أننى إذ عزمت خِطْبَتَها زخرفت قولى لينجح الأرَبُ
فوالذى سارت الرِّفاق إلى كعبته تَسْتَحِثُّها النُّجبُ
ما المكرُ بالمحصنات من خلقى ولا شعارى التمويه والكذبُ

القاضى : [ملتفتا إلى السيدة ، بعد أن فتن بالأبيات ، وصحت لديه معاذير الشيخ]

يازوجة الشيخ ، لقد ثبت عند جميع الحكام ، وولاةِ الأحكام ،
انقراضُ جيل الكرام ، وميلُ الأيام إلى اللئام ...

وإنى لأخال بَعلكِ صدوقا فى الكلام ، بريًّا من الملام . اعلمى
أنّ حَبسَ المُعسِرِ (يؤلم النفس) ويؤذى فى الرَّمس ...

لقد ثبت لى أنه مُعدم يكتمُ فقره ، وكتمانُ الفقر زهاده ، وانتظار
الفرج بالصبر عبادة ...
فاعذرى الشيخ ... وسلى لقضاء ربّك ...

[إلى أمين بيت المال :]

ويا أبا مريم : اجعل لهما فى الصدقات حصة ، وناولهما من دراهمها قبصة .

أبو مريم [إلى الزوجين المختصمين :]

« دونكما هذه الحصة من أموال الصدقات !

القاضى : [إلى الزوجين]

وأنتما أيها الزوجين « تعللا بهذه العُلالة وتندّيا بهذه البُلالة ...
واصبرا على كيد الزمان وكدّه ، فعسى الله أن يأتى بالفرج من عنده ...

الشيخ : [ينهض فرحاً لاطلاق سراحه ، مهتزا لما أتاه من اليسر بعد الأعسار — ينصرف
آخذا بيد زوجه إلى خارج الدار ، حتى إذ ماتواريا عن نظر القاضى أخذ يقول لها
فى تهكم بارع :

« وقد قدته إليك ! . وأحضرته لديك ! . لتعجم عود دعواه !
وتحكمَ بيننا ـ بما أراك الله !
« لقد حكم سيدنا — بما أراه الله ! !

الحارث : [إلى القاضى]

« لله درّ القاضى ، هذا هو أبو زيدٍ السَّرُوجى . . .

« أشفقتُ من عثورك على بهتانه ، وتزويق لسانِه

« فلا ترى عند عرفانك ـ أن تمنحه من إحسانِك

وحاشا لله أن أكون للخير مانعا . . .

القاضى : ومن هو هذا السَّرُوجى ، ياحارث ؟

الحارث : « إنه أفّاق يجوب الآفاق ، يتقلب فى قوالب الانتساب ، (ويفتن) فى أساليب الاكتساب ، يدّعى تارة أنه من آل ساسان ، وينتسب مرة إلى أقيال غسّان ، ويبرُز طورا فى دثار الشعراء ، ويلبس حينا ثوب الكبراء — بيد أنه مع تلوّن حاله ، يتحلى ببلاغة رائعة ، وبديهة مطاوعة ، وهو لمحاسن آياته ، يُؤخذُ على عِلاّتِه ، ولسعة (درايته) يُتاقُ إلى رؤيته ، ويُسكتُ عن هويته ... »

القاضى : [وقد أخذه العجب من مكر الرجل وبهتانه ، ومهارته وحسن افتنانه]

« علىّ بالرجل يا أبا مريم !

انطلق فى أثره حتى تأتينى به ، أو توافينى بخبره ...

أبو مريم : [يدق بعصاه ، ثم ينطلق مسرعا يبحث على الشيخ]

« يأهل الحى !! يأهل الحى !!

« شيخ آبق ! عجوز مارق !

« يقتاد امرأةَ شديدة البأس ، حاسرة الرأس ...

« يأهل الحى !!

« شيخ رثُّ الثياب ، تصحبه أمرأة شديدة البأس، عارية الرأس ـ أين ذهبا ؟ ؟



أمام قاضى بغداد ـ أبو زيد يدّعى أن ابنه سرق شعره

« أيها المتخاصمان : إن أردتما اتضاح الحق من الباطل ، فتباريا فى النظم أمامى ، ليهلك من هلك عن بينة ، وليحيي من حيى عن بينة ».



جماعة بالباب: [لأبي مريم]

« لقد رأيناه منذ خرج يصفق بيديه ، ويخالف بين رجليه ، ويغرد بملء شدقيه ، ويقول :

كدت أُصلى ببلية   من وَقاح شمَّرية
وأزور السجن لولا   حاكم الأسكندرية

لقد سلك طريقه إلى الخلاء — فعليك به !

أصوات : « من هنا .. اتبعه !

أصوات : « لا — بل من هنا ، اتبعه !

أبو مريم : [وقد عاد بعد لأى إلى حيث القاضى]

« لقد فر الشيخ ، فلم نعُد نعثر له على أثر ...
« لم يزل الشيخ مذ خرج يصفق بيديه، ويخالف طربا بين رجليه
« ويغرّد بملء شدقيه ويقول، وهو يجدُّ فى طريقه إلى الخلاء :

كدت أُصْلَى ببلية   من وقاح شمرية
وأزور السجن لولا   حاكم الأسكندرية

القاضى : [للحارث] تالله إنه لشيخ بارع ، عجوز مخادع...

« أما إنه لو حضر ، لـكُـفِى الحذر ، ثم لأعطيته ما هو به أولى
« — ولأريته أن الآخرة خير من الأولى !

[ثم يستغرب فى الضحك حتى تهوى قلنسوته ويذهب الكثير من وقاره ويضيف:]

« اللهم بحرمة عبادك المقرَّبين !
« حرّم حبسى على المتأدّبين ......
« أما إنه لو حضر ، لـكفى الحذر
« ثم لأعطيته فى مرّتى الثانية
« خيرا مما أعطيته فى مرّتى الأولى ... »

(٢)

« أبو زيد » يدعى أن ابنه سرق شعره

ثم يختصمان إلى قاضى بغداد

فى ساحة القضاء :

(شيخ طويل اللسان ، قصير الطيلسان ، وقد أخذ بتلابيب فتى غض الأهاب ، خلق الجلباب ، ترمقه النظارة فى كثير من الدهش وهو يجر الشـاب إلى دار الأمارة)

النظارة : ١ — ما بال الشيخ ، قد قصر طيلسانه وطال لسانه ، يكيل الشاب لكما ولطما . . . ! ؟

٢ — لقد أخذ بخناقه ، حتى أوشكت تذهب أنفاسه !

٣ — ياله من شيخ قاس ، شديد الباس !

٤ — وما لهذا الشاب لا يستطيع عن نفسه دفاعاً ؟ !

٥ — أيها الجمع : خلّصو الشابَّ من الشيخ ، أو فادفعوا بهما إلى ساحة القضاء !

الجميع : إلى القاضى . . ! إلى القاضى . . ! إلى قطب العدالة ! إلى صاحب المعونة !

(يقود النظارة الرجل وغريمه إلى ساحة القضاء ، ويدفعون بهما إلى صاحب المعونة)

القاضى : ما خطبكما ؟

الشيخ : أعزّ الله الوالى . . . !

إنى كفلتُ هـذا الغلامَ فطيما ، وربيتُه يتيما ، ثم وسعته تعليما فلما مَهرَ وبَهرَ ... جرَّد سيفَ العُدوان وشَهرَ .. ولم أكن إخَاله يلتوى علىّ ، أو يخرجُ من بين يدىّ !

الفتى : أيدَ الله القاضى ... !

إنى لا أعرف لنفسى جريرة — تالله ما جَحدتُ فضله ، ولا شققت عصا الطاعة عليه ، فأىَّ مَسَاةٍ جنيت ؟ وبأىِّ فضلٍ أزريت ؟

الشيخ : ويحك ياغلام ، أىّ عيب أفحشُ من عيبك !

لقد ادَّعيت سحرى ، وسرقتَ شِعرى ... !

القاضى : [للشيخ] وهل حين سرق ، سَلخ أم مَسَخَ أم نَسَخ ؟

الشيخ : [للقاضى] والذى جعل الشِّعرَ ديوانَ العرب ، وترجمانَ الأدب ! لقد أحدث بشعرى حَدثاً ياله من حَدث ! سلخ منه الثلثين فانتحلهما لنفسه ، وأبقى لى الثلث !

القاضى : [للشيخ] أنشدنى ما قلت أيها الشيخ

الشيخ : ياخاطبَ الدُّنيا الدَّنية إنها   شَرَكُ الرَّدى (وقرارة الأكدار)

[للفتى] وماذا قلت يافتى ؟

الفتى : ياخاطب الدنيا الدنيـــة   إنهـــا شرك الردى

وأنت أيها الشيخ ؟

الشيخ : دارٌ متى ما أضحكت فى يومها   أبكت غداً (بُعداً لها من دار)

وأنت أيها الفتى ؟

الفتى : دار متى ما أضحكت   فى يومها أبكت غداً

وأنت أيها الشيخ ؟

الشيخ : غاراتها ما تنقضى وأسيرها   لا يفتدى (بجلائل الأخطار)

وأنت أيها الفتى ؟

الفتى : غاراتهـــا ما تنقضى وأسيرها لا يُفتـدى

وأنت أيها الشيخ ؟

الشيخ : قلبت له ظهر المجنّ وأولغت فيه المُدَى (ونزت لأخذ الثار)

وأنت أيها الفتى ؟

الفتى : قلبت له ظهـــر المجن وأولغت فيه المـــدى

وأنت أيها الشيخ ؟

الشيخ : فاربأ بعمرِك أن يمُرَّ مُضيّعا فيها سدىً (من غير ما استظهار)

وأنت أيها الفتى ؟

الفتى : فاربأ بعمرِك أن يمُـــرَّ مُضيعا فيها ســـدى

وأنت أيها الشيخ ؟

الشيخ : واقطع علائقِ حُبّها وطِلابها تلق الهدى (ورفاهة الأسرار)

وأنت أيها الفتى ؟

الفتى : واقطـــع علائقِ حُبّها وطِلابها تلقَ الهـدى

...

القاضى : [للغلام] تبًا لك من خرّيج مارق ، وتلميذٍ سارق !

الفتى : برئتُ من الأدب وبنيه ، إن كنت قد سرقت معانيه ، أو سطوت على قوافيه — إنما اتفق توارد الخواطر ، وقد يقع الحافر على الحافر! إنها فعل المصادفة !

(فأطرق القاضى هنيهة ، وكأنما قد صدق عنده زعم الشاب ، فندم على لومه)

القاضى : أيها المتخاصمان : إن أردتما اتضاح الحق من الباطل ، فتباريا فى النظم أمامى ، ليهلِكَ من هلَكَ عن بيّنة ، وليحيَى من حَيِيَ عن بيّنة ...

الشيخ والفتى معا : لقد رضينا امتحانك ..

القاضى . فانتظما لى تسعة أبيات تضمنانها شرح حالى مع إلفٍ لى ، بديع الصِّفة، أرجوانىّ الشَّفَة ، مليح التَّثنِّى ، كثير التِّيهِ والتَّجنِّى — مغرمٍ بتناسى العهد ، وإطالة الصّد ، وإخلافِ الوعد ، وأنا له رغم ذلك كله — كالعبد ... هيّا !

(سكون)

(الشيخ والشاب ينتحيان ، ويتسابقان فى نظم الأبيات ، حتى إذا فرغا منها أنشداها متتابعين — الشيخ يقول ، فيردد الفتى ما قال)

وأحوى حوى رِقى برقّةِ ثغره ... وغادرنى إلف السهادِ بغدرهِ
تصدّى لِقتلى بالصدود وإننى ... لفى أسرهِ ، مذ حاز قلبى بأسرهِ
أصدّق منه الزور خوف ازورارهِ ... وأرضى استماع الهجر خشية هجرهِ
واستعذِب التعذيب منه وكلما ... أجدّ عذابى ، جدّ بى حبُّ برهِ
تناسى ذِمامى والتناسى مذمّة ... وأحفَظ قلبى ، وهو حافظ سِرهِ
وأعجب ما فيه التباهى بعُجبهِ ... وأُكبره عن أن أفوه بِكِبرهِ
له منى المدح الذى طاب نشره ... ولى منه طى الود بعد نشرِهِ
ولو كان عدلا ما تجنّى ، وقد جَنَى ... علىّ ، وغيرى يجتنى رَشْفَ ثغرِهِ
وإنى على تصريف أمرى وأمرِهِ ... أرى المُرّ حلواً فى انقيادى لأمرِهِ

القاضى : والله إن هذا لشىء عجاب ، يحيّر الألباب ...!

لم أر فى دهرى توافقا كهذا التوافق ، ولا ترافقا كهذا الترافق ! أشهد بالله أنكما فرقدان فى سماء ، وزندان فى وعاء ، لكل منكما ذكاء — أى ذكاء !

القاضى : [للشيخ]
أيها الشيخ: « إن هذا الغلام ينفق مما آتاه الله ، ويستغنى بما لديه عمّن سواه ،
فتُب أيها الشيخ من اتهامه ، وعُد إلى إكرامه ... !
الشيخ : هيهات أن تَعْلَقَ به ثقتى، لقد مُنيتُ منه بالعقوق الشنيع ، وبلوتُ
كفرانه لكل صنيع ... !
الفتى : ياشيخ إن اللَّجاجَ شُؤْمٌ ، والحَنَقَ لُؤْم ، وإعنَاتَ البرىء ظلْم ،
هَبْنى اقترفتَ جريرة ، أو اجترحتُ كبيرة — أمَا تذكرُ ما أنْشَدتَنى
لنفسك — إبان أُنْسِك :

سامح أخاك إذا خلط   منه الأصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه   إن جارَ يوما أو قسَط
واحفظ صنيعَك عِنده   شَكَرَ الصنيعة أم غمط
واعلم بأنك إن طلبت مهذبا رُمت الشطط
من ذا الذى ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط
أوَ ما ترى المحبوب والمكروه صِيغا فى نمط
كالشوك يبدو فى الغصو   ن مع الجنِىِّ الملتقط
ولو انتقدت بنى الزما   ن وجدت أكثرهم سقط

النظارة : جميل .. جميل ...! عظيم ... عظيم ..! صحيح ... صحيح ...!
الشيخ : والذى زين السماء بالشُهُب ، وأنزل الماءَ من السُّحُب ...
إن هذا الفتى اعتاد أن أمُونَه وأرعى شُئُونه
وقد كان الدهر يجود ، فلم أكن أشح ...
أما الآن ، فالوقت عبوس — حتى أن ثيابى هذه والله عارة ، وبيتى
لاتزوره من الفقر ... فارة !

النظارة : مسكين ! مسكين ! إنه غاية فى الإملاق — يستحق الأشفاق ...

القاضى : [وقد رق لحالها قلبه مخاطباً الحاجب]
ياحاجب المكان ، مُرْ هؤلاء النظارة ينصرفون على عجل ...!

الحاجب : [يدق الأرض بعصاه ...]
انصرفوا رحمكم الله !.. انصرفوا رحمكم الله !

النظارة : حيا الله العدالة ..! الرحمة فوق القانون ..! الرحمة فوق القانون ... ! [ثم ينصرفون]

أحدالنظارة : (يبق ، وكان ممن يعرفون ألاعيبالسروجى ، يريد أن يقرب منه ، ليتعرف عليه بعد ارفضاض الجمع)

القاضى : وأنت أيها اللُّكَعُ الذى لم ينصرف — ما مُرامك ، ولأى سببٍ مُقامك ؟

الشيخ : إنه أنيسى ، أبْقِ حفِظ الله مقامَك ، وتوَّج بالعزّ أيّامك ...

القاضى : اجلس أيها الرجل إلى جوارهما ، لتشهد إكرامهما ...
(إلى الحاجب)
وأنت أيها الحاجب : اعطِ الشيخ والفتى خِلعتين ، وزدهما نصابا من العين ، واستعهدهما أن يتعاشرا بالمعروف ، وأن يذكرا اليوم المخوف ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ...

الحاجب : [للشيخ والفتى] : خذا هذه العطية ، وفيرةً سخية . . . !
والله أن أمركما عجب ! انصرفا — لا أرانى اللهُ وجهكما بعدالآن !

الشيخ والفتى : [إلى القاضى] : أيها القاضى ياخيرَ من حكم ، أفسحَ اللهُ ناديك ونصرَكَ على من يعاديك ! [ثم ينصرفان]

• • •

الحاجب : [للقاضى]

هل سمعتم يا أولى الألباب ، بأعجب من هذا العجاب ، شيخ رثُّ الثياب خَلقُ الجلباب يستصحبُ فتىً غضّ الإهاب ، يتهمه تارةً بالعقوق ، وأخرى بانتحال الشّعر ، إنه وايمّ الحق لرجل محتال ، يدعى سوء الحال ليحصل على المال ... !

لا شك أنه أبو زيد داهية سروج . ذلك الأفّاق ، الذى يجوب الآفاق ، تجوز ألاعيبه ، وتنطلى أفانينه ، فيظفر بالعطية ، ويسارع إلى الإفلات ..

القاضى : [للحاجب] : علىّ بهما ، انطلق فى إثرهما — أدركهما ، ثم هاتهما ، أو علىّ بذلك اللُّكعة الذى انفضّ جمع النظارة وبق ، وتمسك به الشيخ ، فادعى أنه أنيسه ، فأمرت بجلوسه ، وأشهدته على إكرامى للشيخ والشاب ...

. . .

الحاجب : (ينطلق باحثا عن الثلاثة ، فيعثر على هذا الأخير متسكعاً فى الطريق ، فيعود به إلى مجلس القاضى)

الرجل : مولاى القاضى ، أى ذنب جنيت حتى يُزرى بى حاجبك هذا الأزراء ! إنه ركلنى من خلف ، واقتادنى بعنف ، ووصفنى بالتدليس والفعل الخسيس ، ومصاحبةِ إبليس !

ما هكذا يساء إلى القوم فى دار السلام !

القاضى : إنه ياصاح فعلُ القيظ ، والحنق والغيظ ، اعفُ عنه ، واغفر خطيئته . ثم اسمع أيها الشريك ! إننى واللهِ ما أعجزنى يوما قطُّ فضحُ مُريب ، ولا تكشيفُ معيب ... وما عرفت قط قبل

الآن أن شيخا مثل صاحبك قد دلّس على القضاء ... قل — ناشدتك الله — ألست الذى أعاره هذا الطيلسان ، ودفع به إلى هذا المكان ... ؟

الرجل : لا ، وأيمّ الحق ، ما دفعته إلى ارتكاب أمر — أننى عندما تفرقت الجموع ُتوسّمته ، فأذا به أبو زيد ، والفتى فتاه ، فعرفت حينئذ مغزاه فيما أتاه ، وكدت انقضّ عليه لاستعرف إليه ، فزجرنى بأيماضة من طرفه ، وإيماءة من كفه ، فلزمت موقفى ... واشفقت عليه أن يفتضح خبره ، فيحرم من هباتك ، وهو معدم شديد الأملاق — يستحق الأشفاق ...

القاضى : أوَ تدرى أين سكع ذلك اللُّكَع ؟

الرجل : إنه أشفق منك ، فظعن عن بغداد من فوره ..

القاضى : [للرجل]

لا قرّب الله له نوى ، ولا كلأه أين ثوى .. فما زاولت — فى حياتى — أشد من نكره ، ولا ذقت أمرّ من مكره ، ولولا حرمة أدبه ، لأوغلت فى طلبه ، إنى لأكره أن تشيع فعلته فى دار السلام ، فأفتضح بين الأنام ، وتهبط مكانتى عند الإمام ، وأصيرَ أضحوكة الخاص والعام ...

القاضى : خبرنى ، أين جدّ الشيخ ... ؟

الرجل : أنه سلك طريقه إلى الرّها مستصحباً فتاه ، وهو يردد سائراً فى الخلاء :

أقسم بالبيتِ العتيق ذى الحُرَمْ والطائفينَ العاكفين فى الحَرَمْ
إنك نعم من إليه يُحتكَمْ وخيرُ قاضٍ فى الأعاريب حَكَمْ

(٣)

أبو زيد السروجى وفتاه يحتالان على قاضى صَعدَه*

[فى حضرة قاض رحيب الباع ، تميمى الطباع ، جالس للأسجال ، وشكاية الحال ، يدخل شيخ بالى الرياش ، بادى الارتعاش ، يزعم أن له خصما غير منقاد ، يدفع به إلى حضرة القاضى)

الشيخ : أيد الله القاضى وعصَمَه من التغاضى ... !

إن ابنى هذا كالقلم الردِىّ ، والسيف الصدِىّ

يجهل أوصاف الإنصاف ، ويتوق دائما إلى الخلاف !

إذا أعربتُ أعجم ، وإن سكتُّ تكلم ! وإذا أقدمت أحجم !

مع أنى كفلته منذ دبّ ، إلى أن شبّ ...

والله يامولاى إنه لولدٌ عاق كثير المشاق !

القاضى : أشهد أن العقوق أمر يغضب الرب ، ويوجب الضّرب .

وربَّ مُعقم كان أقرَّ للعين من هذا الشّين ...

الغلام : والذى نصّب القضاة للعدل ، وملّكهم أعنّة الفصل والفضل !

إنه مادعا يوما إلا أمّنت ، ولا ادّعى إلا آمنت ...

تالله إنه يبغى بيض الأنوق ، ويطلب الطيران من النوق !

إن أمره يامولاى لعجيب !

القاضى : إيه يافتى ، بما أعنتَكَ ، وامتحنَ طاعتَك ؟ تكلم !

الغلام : إنه يامولاى منذ صفِرَ من المال ، ومُنِىَ بالإمحال ...

---

* بلدة كانت فى اليمن قديما على مقربة من صنعاء .

يطلب إليَّ أن أُجوبَ للسؤال ، وأبسُط كفي للنوال ...
وكان حين أخذني بالدرس ، وعلمني أدب النفس ،
قد أشربَ قلبي أن الحرصَ متعبه ، والطمع معتبة ،
وأن السؤال ملامة ، والاستجداء مشأمة . . ! !
ثم أنشدني قوله :

إرضَ بأدنى العيش واشكر عليه — شُكر من القُلُّ كثيرٌ لديه
وحامِ عن عِرضك واستبقهِ — كما يُحامي الليث عن لِبدتيه
واصبر على ما ناب من فاقةٍ — صبر أولى العزم واغمض عليه
فالحرُّ من إذا قَذِيت عينــه — أخفى قَذَى جفنيه عن ناظريه
ولا تُرِق ماءَ المحيَّـا ولو — خوَّلك المسئولُ ما في يديه

الشيخ : [وقد عبس واكفهر]
صه يا عُقق ! يا أمَرَّ من الشجَى والشَّرَق !
(ثم نظر نجأة بعين عاطف ، وخفض جناح ملاطف ، وقال :)
يا بنى ! إن من أمر بالقناعة ، وزُجر عن الضراعة ، هم أرباب البضاعة
وأولو المكسبةِ بالصناعة ... وأين نحن من هؤلاء ؟
وأما ذوو الضرورات ، فقد استُثنوا من المحظورات ...
ألست الذي عارضني يوما ، ثم لما ثبتَ إلى رشادك ، وافقتني
حين قلت لك :

لا تقعدنَّ على ضرٍّ ومسغبة — لكي يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض معطلة — من النبات كأرض حفَّها الشجر ؟
فعدِّ عما تشير الأغبياء به — فأيّ فضـل لعودٍ ماله ثمر ؟

وارحل ركابَكَ عن رَبعٍ ظمئتَ به | إلى الجناب الذى يهمى به المطر
واستنزل الرىّ من درّ السحاب فإن | بُلّت يداك به فليهنك الظفر
فإن رُدِدتَ فما فى الرد منقصةٌ | عليك، فقد رُدّ موسى قبل والخضر

الفتى : [يلزم الصمت]

القاضى : [ناظراً إلى الفتى بعين غضبى يقول :]
أتميميا ياغلامُ مرّةً ، وقيسيا أخرى !؟
أفٍ لمن ينقضُ ما يقول ، ويتلونُ تلوُّنَ الغول !

الغلام : والذى جعلك مفتاحا للحق ، وحاكما بين الخلق !
لقد أنسيت ، مذ عضنى الجوع بنابه ، وصدئ ذهنى ، مذ طوانى الأسى فى جرابه — على أنه يامولاى ، أين الباب الفسيح ... والعطاء المليح ؟ — أين ؟!

القاضى : [وقد أراد أن يطيب خاطر الفتى ، ويزيل عنه الحزن]
مه ! ليس كل سهم بخائب ، ولا كل برق بخالب ...
فسدد السهمَ وميّز البروق ، وأقلع يابنى عن العقوق !
وكن للشيخ مطواعا ...

الشيخ : [وقد هش لكلام القاضى ، وتأكد من نصرته]
يأيها القاضى الذى عِلمُه | وحلمه أرسخ من رضوى !
قد ادعى هــذا على جهله | أن ليس فى الدنيا أخو جدوى
وما درى أنك من معشرٍ | عطاؤهم كالمن والسلوى
فجـــد بما يثنيه مستخزيا | مما افترى من كذبِ الدعوى

القاضى : [وقد هش لقول الشيخ ، يلتفت إلى الغلام ويقول :]
أرأيت يافتى بطلان زعمك ، وخطأ فهمك ؟

أياك أيها الفتى أن تتأخر عن مطاوعةِ أبيك ، فأنك إن عدت
تعُـقـُّـه ، نالك منى ماتستحقـُّـه ... [ثم ملتفتا الى الحاجب :]
وأنت أيها الحاجب ، مُرْ خازن بيت المال يُعطهما بَدْرَة ...

الغلام : سمعاً أيها القاضى ، سمعاً ! [ثم يهم بالانصراف مع أبيه الشيخ]

معاً : سمعاً أيها القاضى وطاعة ! سمعاً أيها القاضى وطاعة ... !

الشيخ والغلام : [وهما يهان بالانصراف]

من ضامهُ أو ضاره دهرُه   فليقصدِ القاضى فى صَعْدَه
سماحُه أزرى بمن قبــله   وعدله اتعب من بَعــده

(ينصرفان وهما يرددان البيتين من الشعر)

أحد الشهود : [لنفسه مناجيا]
إنى أكاد أعرف الشيخ والغلام ... من ترى يكونان ؟

(ثم ينطلق خلفهما ، يبعد ويقترب — الى أن يلتقى بالشيخ وجها لوجه)

الشيخ : [وقد زال عنه ارتعاشه المصطنع للشاهد :]
من كاذَبَ أخاه فلا عاش !

(فادرك الشاهد أنه السروجى والغلام غلامه)

الشاهد : [يتقدم اليه مصافحاً]
والله ما أخطأت الفهم ، غير أنى آثرت الصمت حتى يغادر
السروجى مجلس القضاء ...

الشيخ : [مخاطبا الشاهد]
لحالك أيها الأخ — أنا السروجى ، وهذا ولدى ...
ليس لنا ياصاح من دار — فالفرار الفرار !

(ثم ينشد وابنه وهو يولى الأدبار)

من ضامه أو ضاره دهرُه   فليقصدِ القاضى فى صعدَه
سماحُه أزرى بمنْ قبــله   وعدله اتعبَ من بَعدَه

(٤)

السروجى وزوجه يختصمان إلى قاضى تبريز

(جماعة من النساء يتبعن شيخاً ملتفاً بكساء ، يسوق امرأة باهرة السفور، ظاهرة النفور إلى حضرة القاضى — النساء يتصايحن :)

واحدة : ياويل النساء من الرجال ! امرأة باهرة الجمال ، رقيقة الحال ، ينال منها الشيخ القاسى — كل هذا المنال ! !

أخرى : ياللرجال ما يقنعون !

ثالثة : تقدمى يا أختاه ... قُصى كل شىء !

رابعة : تذرّعى بالبكاء وكيد النساء ...!

خامسة : أذكرى سوء المعاملة ، وتقدم السن والمغازلة !

سادسة : أواه ... إن النساءَ مهيضات الجناح !

(يتخلفن جميعهن فلا يدخلن مجلس القضاء)

رجل : وأنت أيها الشيخ تقدم ! واذكر أن الرجال قوامون على النساء ..

[يتقدم الشيخ ، يسوق امرأته أمامه إلى مجلس القضاء]

القاضى : ومن هذان القادمان ؟ — بعلان مختصمان .. !!

الشيخ : (وقد جثا على ركبتيه أمام القاضى)

أيد الله القاضى ، وأحسن إليه . . . !

— إن مطيتى هذه أبيّة القِياد كثيرة الشراد ...

— مع أنى أطوع لها من بنانها ، وأحنى عليها من جنانها . . .

— تزوجتها لتؤنسني في الغربة وتزيل عني تعب العُزبة ...

— فتأبى إلا أن تبخسني حقي ، وتكلفني فوق طوقي ...

— وها نحن قد تساعينا إلى الحاكم ، ليضرب على يد الظالم ...

القاضي : ويحكِ يا امرأة — أما علمتِ أن النشوزَ يغضب الربَّ ويُوجب الضرب ؟

المرأة : — إنه وأيم الحق جائر ظالم ، يأخذ الجارَ بالجار ، ويدورُ خلف الدار ...

القاضي : تباً لك ! أتبذُر في السباخ ، وتستفرخ حيث لا إفراخ ؟ !

الشيخ : سُحقاً لكِ يا امرأة !

[إلى القاضي]

— إنها ومُرسِلِ الرياح لأكذبُ من سجاح !

المرأة : — بل هو ومَن طوّق الحمامة ، وجنّح النعامة

لأكذبُ من أبي ثمامة ، من ذاع أمره في اليمامة

مسيلمة الكذاب . .

الشيخ : ويلكِ يا فجار ، يا غُصَّة البعل والجار !

أتعمدين في الخلوة إلى تعذيبي ، وتدأبين في المجتمع على تكذيبي !

أما علمتِ أني حين دخلتُ بكِ ...

ألفيتك أقبح من قردة ، وأيبسَ من قِدَّة

وأخشن من ليفة ، وأنتن من جيفة !

فسترتُ عواركِ ، ولم أبدِ عاركِ ...

— والله لو حبتكِ شيرينُ بجمالها ...

— وزبيدةُ بمالها ....

— وبلقيسُ بعرشها ....

— وبورانُ بفَرشها ....

— والزبّاءُ بملكها ...

— ورابعةُ بنُسكها ....

— والخنساء بشعرها ...

— لما رضيت أن تكونى لى زوجة !

المرأة : [وقد شمرت عن ساعدها ، وتنمّرت]

— يا ألأمَ من مادر ، وأجبن من صافر ، وأطيش من طامر ،

— أترميني بعارك ، وتقذفني بشنارك ؟!

— وأنت تعلم أنك أحقرُ من قُلامة

— وأعيب من بغلة أبى دلامة !

— هبك الحَسَنَ فى وعظه ولفظه ، والشعبيَّ فى علمه وحفظه...

— والخليل فى عروضه ونحوه ، وجريراً فى غزله وهجوه ...

— أتظننى أرضاك إماما لمحرابى ، وحُساما لقرابى ... ؟

— لا — والله — بل ولا بوّاباً لبابى !

القاضى : إنى أراكما صنوين أحمقين ، وزوجين متكافئين ...

اترك أيها الشيخ اللَّدَد ، وأسلك فى سيرك الجَـدَد ...

وأنت أيتها المرأة — كفّى عن سبابه .. واهدئى إذا ما أتى البيتَ من بابه ...

المرأة : والله ما أحبِس عنه لِسانى ، إلا إذا كسانى ...

ولا أبسط إليه ذراعى ، إلا إذا عمل على إشباعى ..

الشيخ : والله يامولاى ، لا أملك من حطام الدنيا غير هذه الأطمار البالية والعصابة الواهية ... (مشيرا إلى عمامته)

القاضى : أيها المختصمان ، الرجل والمرأة : ألم يكفكما التسافهُ فى مجلس الحكم



السروجى وامرأته يختصمان إلى قاضى تبريز

« ويحك يا امرأة ! ـ أما علمت أن النشوز يغضب الرب ، ويوجب الضرب ؟ »

والاقدامُ على مثل هذا الجُرم ؟! حتى أضفتما إلى فُحش المقاذعة، خبثَ المُخادعة . . . . !

إن أمير المؤمنين ، أعزَّ الله ببقائه الدِّين ، قد نصَّبني لأقضيَ بين الخُصماء – لا لأقضي دَيْنَ الغُرماء . . .

ووَحقِّ نعمته التي أحلّتني هـذا المحل ، وملّكتني العَقْد والحل ، لئن لم تُوضحا لي جليّة أمركما ، لأشهِّرَنَّ بكما في الأمصار ، ولا جعلنّكما عبرةً لأولي الأبصار ...!

الشيخ : [بعد إطراقة ، يقول موجها الكلام للقاضي] سماع، يامولاي سماع !

أنا السَّروجيُّ وهـذي عِرسي وليس كفؤَ البدر غيرُ الشمس
وما تنـافى أُنسُها وأُنسي ولا عَدَتْ سُقياي أرضَ غَرسي
لـكنّـا منـذ ليالٍ خمسِ نُصبِحُ في ثوب الطوى ونُمسي
لا نعرف المضغ ولا التحسّي حتى كأنّا لخفوت النَّفس
أشباحُ موتى نُشرت من رمس
فحين عزَّ الصبرُ والتأسي وشفّنا الضُّرُّ الأليم المسّ
قمنا لسعد الجدِّ أو للنّحس فانظر إلى يومي وسل عن أمسي
وأْمُرْ بِجَبْري إن تَشا أو حَبْسي ففي يديكَ صِحّتي ونُكسي

القاضي : لِيَعُدْ إليك أُنسُكَ ، ولتطِب نفسُكَ ، فقد حقَّ لك أن تُغفَر خطيئتُك ، ويُجزَل عطِيّتُك ..

المرأة : [وقد ثارت واستطالت،وأشارت إلى الحاضرين وقالت:]

يا أهل تبريزَ لكم حاكمٌ أوفى على الحكّام تبْريزا
ما فيه من عيب سوى أنه يومَ النّدى قسمته ضِيزَى
قصدتهُ والشيخَ نبغى جَنَى عودٍ له ما زالَ مهزوزا
فسرّحَ الشيخَ ، وقد نال من جدواه تخصيصاً وتمييزا
وردّنى أخيبَ من ناظرٍ برقاً خفَا فى شهر تمّوزا
كأنه لم يدرْ أنى التى لقّنْتُ ذا الشيخ الأراجيزا
وأننى إن شئتُ غادرتُه أضحوكةً فى أهلِ تبريزا

القاضى : لقد مُنيت فى يومى هذا بالداء العياء والداهية الدهياء ! [إلى نفسه]
— إننى متى مُنحتُ أحدالزّوجين ، وصرفتُ الآخر صِفرَاليدين
— كنت كمن قضى الدَّين بالدين ، وصلى المغرب ركعتين !
(يتململ كآبة ...)
— والله إن هذا لشىء عجاب .. ما هذا يوم قضاء !
— هذا يوم الاغترام ، هذا يوم الخُسْران ... !
— هذا يوم عصيب ، يومٌ نُصابُ فيه ، ولا نُصيب ... !
[للحاجب ...]
وأنت أيها الحاجب ، أرحنى من هذين المهذارين ، واقطع لسانهما بدينارين، ثم فرق الأصحاب،وأغلق الباب، وأشع أنه يوم مذموم، وأنّ القاضى فيه مهموم — حتى لا يحْضَرَنى بعد ذلك خصوم ...

الحاجب : وأنتما يا نِدّينِ — خذا هذين المثقالين ، ثم اجنُبا الكذبَ والمين،
أشهد أنكما أحيلُ الثقَلَين ، الأنس والجن !

— احترما بعد اليوم مجالس الحكام ، واجتنبا فيها فُحش الكلام ،
وتخاصم اللئام ، فما كل قاضٍ قاضى تبريز ، ولا فى كل وقتٍ
تُسمع الأراجيز — هيا انصرفا !

(ينصرفان ... وهما يرددان فى وقت معاً)

الشيخ والمرأة: أيها الحاجب ، الهمام: ياخيرَ من حَجَبْ ، إن شكركَ قد وجبْ!
إن شكركَ قد وَجبْ !

مع السَّروجى فى المسجد

وفى حضرة الوُلاة

(١)

السَّروجى فى مسجد تفليس

قال الراوى : اتفق حين دخلتُ تفليس ، أن صليت مع زُمرة مفاليس ، فلما قُضيت الصلاة ، وهمّ جمعُ المصلين بالانصراف ، بَرَزَ شيخ مفلوج ، مُهلهلُ السرابيل ، ينادى بصوت مُتهدّج ، من فم معُوَج ، وشْدق مُلْتَو جماعَةَ المصلّين يقول :

« عَزَمْتُ على من خُلق من طينة الحرّية
ورَضَع من لُبان العَصَبيَّة ...
إلا تكلَّفَ لى وَقْفَة ...
وسمع منى نَفْثَة ... !
ثم له الخيارُ من بعد ...
وله البذْل والرّد[1] ... ... »

قال الراوى : فأنصت القوم ، ووقف منهم من وقف ، وجلس من جلس ، فلما آنس الشيخ من المصلين حُسنَ الانصات ، قال :

يا أولى الأبصار الرّامقة ، والبصائر الرائقة !

---

(١) رد السائل من غير عطاء .

أما يُغْنى عن الخَبر العِيَان ، ويُنْبى(١) عن النّار الدخان ؟
شَيْبٌ ظاهر ، وجدٌّ عاثر ...
وداءٌ واضح ، وخَطْبٌ فادح ...
(ثم سكت هنيهة ، وأغرورقت عيناه بالدموع ، وقال :)
لقد كنتُ والله ممن مَلَكَ المال ...
وأعان وأنال ...
فلم تزل النّوائبُ تَحُلّ ، والبركةُ تَقلّ
فإذا الوكرُ(٢) قفرٌ ، والكفُّ صِفر(٣)
والعيشُ مرٌّ ... [وبكى]
والصّبية يصيحون من الطوى ، ويتمنّون مصاصة النوى ...
ولم أقم بينكم هذا المُقام الشائن ...
وأكشفُ لكم عن الدفائن ...
إلا بعدَ ما شَقيت ، وشبْتُ مما لَقيت ...
فليتني لم أكن بَقيت ... ! [يبكى حتى تبلل دموعه خديه ولحيته]

قال الراوى : ثم تأوّه الشيخ الأسيف ، وأنشد بصوتٍ ضعيف :

أشكو إلى الرحمن سبحانَه ... تقلُّبَ الدّهر وعُدوانَه
وحادثاتٍ صَدَعت سَطوتى ... وقَوّضتْ مجدى وبُنيانَه
واهتصرَتْ عودى وياويلَ من ... تهتصرُ الأحداثُ أغصانَه
وأقفرت ربعى حتى جلَت ... من رَبْعى المُمحِل جُرذانه

---

(١) ينبىء (٢) يشير بالوكر إلى البيت (٣) خال من كل شيء

وغادَرَتْني حائراً بائراً أُكابدُ الفقر وأشجانَه
من بعد ما كنتُ أخا ثَرْوةٍ يَسْحَبُ فى النعمة أرْدانه

(ثم أخذه الحزن فبكى حتى أبكى ...)

فهل من فتى يَحْزُنُه ما يرى من ضُرِّ شيخ دهرُه خانه
فَيفرِّجَ الهمَّ الذى همَّــهُ ويُصلحَ الأمْرَ الذى شانَه

قال الراوى : فصَبَت الجماعةُ إلى معونته ، غير أنها أرادت أن تكشف عن هَوِيَّته (١) فقال قائل :

لقد عرفنا رُتْبَتَك ، فعرِّفنا بالله دَوْحَةَ شُعَبَتِك ، وأمِطْ اللثام عن نِسبَتِك ...

قال الراوى : فأعرض الشيخ إعراض من مُنِىَ بالإعنات
وجعل يلعنُ الضّرورات
ويتأفّف من ذهاب المروءات
ثم أنشد :

لَعُمْرُكَ ما كلُّ فرع يَدُلُّ جناهُ اللّذيذُ عن أصلِهِ
فكُلْ ما حَلا حين يُؤتَى به ولا تسألِ الشّهدَ عن نحلِهِ
وميّز إذا ما اعتصرتَ الكُرُوم سُلافَةَ عَصْرِك من خَلِّهِ
لتُعْلِى وتَنْقُصَ عن خِبْرَةٍ وتَشْرِى كُلًّا شِرا مِثْلِهِ
فَعَارٌ على الفَطِن اللّوذَعِىّ دُخولُ الغُمَيْزَةِ فى عقلِهِ

(١) حقيقة شخصه .

قال الراوى: فأعجب القومُ بذكائه، وخُلِبُوا بحسن أدائه ...
وأعْمَلَ كلٌّ منهم يده فى جيبه، فخَرَجَت بالقليل الذى لا ينفع
ودفعوا به إلى الشيخ — قائلين:
أيها الشيخ: لقد طُفْتَ ببئرٍ نَضَبَ ماؤُه، وجفَّ دلاؤه، فلاتلم
أيها الشيخ — ولا تَذُمْ!

قال الراوى: فنزل قليلُهم عنده منزلَةَ الكثير، وتقبَّلَه بالحمد الوفير
ثم تولّى وهو يجُرُّ شقّه الأيمن جرّا ...
فخيل إلىّ أنه متصنع فى مشيته ...
فقفَوتُ أثَره، لأستجلىَ خبرَه ...
فكان ينظر إلىّ شذَرا، ويزيدنى هجرا ...
حتى إذا خلا الطريق، وأمكن التدقيق ...
نظر إلىّ نظرة من هشّ وبشّ، وأخلَصَ الوُدَّ بعدما غشّ ...
وقال:
إنى لأخالك أخا غُرْبَة، وطالب صُحبة ...
فهل لك فى رفيق، وخِلّ طريق؟
قلتُ، لو أتانى هذا الرفيق ...
لو اتانى التوفيق ...
قال: قد وجَدْتَ ياصاح، فَاغْتَبِطْ!
ثم ضحك مليًا، وتمثّل بعد ذلك بَشَراً سويّا ...!
فارقَه العرَج، وشُفِى فجأةً من الفلَج ...!

قال الراوى : فإذا هو شيخُنا السَّروجّى ، فرحتُ بلقيته ، وهممت بملامته ، لولا أن ابتدرَنى بقوله :

وأظهرتُ للنّاس أن قد فُلِجْتُ   فكم نَالَ قلبي به (١) ما تمنَّى

ولولا الرَّثاثَةُ (٢) لم يُرْثَ لى   ولولا التَّفـاجُ لم أُلقَ منَّا (٣)

قال الراوى : ثم أضاف :

لم يبق لى بهذه الأرض مرتع ، ولا فى أهلها مطمع ...

فإن كنتَ الرَّفيق ... فالطريقَ،الطريق !

فصحبتُه دهرا ، استعذبُ مَكْره ، وأتأمَّلُ نُكْرَه (٤) ...

ووددت أن ألازمه — ما حييت ...

---

(١) أى بالفلج

(٢) الظهور بثياب رثة

(٣) عطاء

(٤) ما يأتيه من أعمال منكرة

(٢)

السروجى وابنه فى مسجد تنّيس

قال الراوى : بينما أنا فى الغُرْبَة بتنِّيس ، أنزل مسجدها الأنيس ، ألفيتُ شيخا بمجلس حوله عشرات المتاعيس ، يستمعون إلى حديثه ، فى ذم الدُّنيا وبؤس ابن آدم، الذى ركن إليها وتكالب عليها — يقول :

مسكينٌ ابنُ آدم ، وأىُّ مسكين ! ركن من الدنيا إلى غير ركين ، واستعصم بها بغير مكين ، وذُبح من حُبِّها بلا سكّين . يَكْلَفُ بها لغباوته ، ويَكْلَبُ عليها لشقاوته ... مسكينٌ ابنُ آدم ، مسكين !

أقسم بمن مرَجَ البحرين، ونوّر القَمرين ، لو عَقَل ابنُ آدم لما نادم ، ولو فكَّر فيما قدم ، لبكى الدّم ، ولو نظر إلى المآل . لحَسَّنَ الأعمال ، ثم اندفع ينشد إنشاد من يُرشد :

ياويحَ من أنذرَهُ شيبهُ وهو على غِىِّ الصِّبا منكمِشْ
فذاكَ إن مات ، فسُحقاً له وإن يعِشْ عُدَّ كأن لم يَعِش
فأخْلِص التوبةَ تَطْمِسْ بها من الخطايا السُّودِ ما قد نُقِشْ
وعاشر النّاسَ بخُلْق رِضاً ودارِ من طاش ومن لم يَطِشْ
وأنجِد الموتورَ ظلما فأن عَجَزْتَ عن إنجاده فاستجِشْ[1]
وأنعِشْ ، إذا ناداك ذُو كبوةٍ عَسَاكَ فى الحَشْرِ به تَنْتَعِشْ

---

(١) اطلب النجدة

وهاكَ كاسَ النُّصح فاشربَ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الكاسِ على مَنْ عَطِشْ

قال الراوى : فلما فرغ من مُبكياته ، وانتهى من إنشاد أبياته ، نهض صَبيٌّ شادن [١] ذو جسم بادن [٢] ، وقال: ياذوى الرأى الحصيف ، لقد وعَيتمُ الإنشاد ، وَفَقِهتُم الإرشاد ، فمن نوى منكم أن يَقْبَل ، ويُصلح المستقبل ، فليُبِن عن نيته ، وليَحتفى بعَطيَّته ، فوالذى يعلم الأسرار ، ويغفرُ الإصرار [٣] إن سرَّى لكما تَرَون ، وإن ماء وجهى ليَستوجبُ الصَّون ، فاعينونى رُزقتُم العَوْن ، ثم قال : فأخذَ الشيخ يرددً إنشاده ، ليَعْطف عليه القلوب ، ويُيسِّر [٤] له المطلوب — فلما أن امتلأ الكيس ، انْسَلتَ الفتى يَميس [٥] ، ويَحمَدُ تنفّس .

ولم يَحلُ للشيخ المقام ، بعدما قام الغلام ، فاسترفعَ الأيدى [٦] للدُّعاء ثم انصرف مُلاحقاً الفتى ، فرأيتُ أن أتبعه فتبِعتهُ ... فلما أمِن أعْينَ النَّظّارة ، التفت إلىّ وسأل :

— وهل أعجبكَ ذكاء الغُلام ، قلت : أى وربّى ... !

— قال : إنه فتى السَّروجى ...

— قلت : إن هذا الشبلَ من ذاك الأسد .... !

فصدَّق الشيخ كهانتى ، واستحسن إبانتى ، ثم قال : هل لك فى كأسٍ معتقة تحتسيها ؟

---

(١) مترعرع (٢) بدين (٣) الاصرار على الذنوب
(٤) ييسر (٥) يتمايل فرحا (٦) طلب رفع الأيدى

فقلت ويحك ! أتأمُرون الناس بالبرّ ، وتنْسَوْنَ أنفُسَكُم (١)...

فتراجع إلىّ — وقال احفَظْها عنىّ وعَلَىّ :

إصْرفْ بِصِرْفِ الرّاح[١] عنكَ الأسى ورَوّح القَلْبَ ولا تكْتَئِبْ

ثم قال : أمّا أنا فسأنْطَلق ... فإذا كنتَ لا تصطَحب[٢]، فلستَ لى برفيق ، ولا طريقك لى بطريق ... ثم وَلّى وجدّ ، وحلَّفَنى أضربُ يداً بيد ، من فرط عجبى بما رأيت ، وانطلقت فى أثره ما وَنَيْت ، ولـكنه سلَكَ طريقه إلى دمياط — فى سرعة البرق الخاطف ، يَسْتَبِقُ الريح ، ويعتكز على الفتى المليح ...

---

(١) صرف الراح بالـكسر ، الخمر الصرف .
(٢) لاترغب فى الصحبة .

(٣)

أبو زيد يستميل والى مرو بأدبه ودهائه

فينال عطاءه ويلوذ بالفرار

قال الراوى : كان السروجىّ أسرعَ من القمر فى النُّقل ، وكنت لهوَى ملاقاته واستحسان مقاماته ، أرغب فى الاغتراب ، واستعذب العذاب ، فلم أزل أنشدهُ فى المحافل وأسأل عنه فى القوافل ، فلا أسمع عنه خبرا ... وإنى لذاتَ يوم بحضرة والى مرو ، إذ طلع أبو زيد فى خَلَق بال ، فحيّا الوالى تحية المحتال إذا لقى صاحب التاج ، : قال اعلم وُقيت الذم ، وكُفيت الهم ، أنّ من رُفعت له الدرجات ، طلبت منه الحاجات ، وان السعيد إذا قدر ، أدى زكاة النِّعم — وقد أصبحتَ بحمد الله عميدَ مِصْرك ، وعماد عَصْرك ...

إننى لامولاى شيخ كان بالأمس عزيزاً ثم ذل ، فبحق من أحلّك هذا المحل ، إلا أوْجبْتَ لى ما يجب عليك ، وأحسنت إلىَّ كما أحسن الله إليك ، وإياك أن تلوى عمن وفَدَ على دارك ، فتقبض عنه راحتك ...

قال الراوى : فصمت الوالى مليا ، والتبس على أبى زيد سرُّ صمته ، وارجاء صِلَتِه ، فتلهب غَضَباً ، وأنشد مقتضباً :

لا تحقِرَنَّ أبيتَ اللَّعْنَ ذا أدبٍ ... لأنْ بدَا خَلَقَ السِّربال سَبروتا[1]

ولا تُضِعْ لِأخى التأميل حُرْمَتَهُ ... أكان ذا لَسِنٍ أم كان سِكِّيتا

(١) فقيرا صعلوكا

فخير مالِ الفتى مالٌ أشادَ لَه ذكرا تَنَاقَلَهُ الركبان أو صيتا
وما على المشترى حمدا — بموهبة غَبْنٌ ، ولو كان ما أعطاه ياقوتا
والسمح فى الناس محبوب خلائقهُ والجامدُ الكفّ ما ينفكُّ ممقوتا
وللشحيح على أمواله علل يوسعنه أبداً ذمًّا وتبكيتا
فجدْ بما جمعت كفاك من نشب (١) حتى يُرى مجتدى جدواك مبهوتا

قال الراوى : فقال له الوالى بالله لقد أحسنت ، فأىّ ولَدِ الرجل أنت؟ فقطّب السّروجى ونظر إلى الوالى : بمؤخّر عينيه وأنشد من فوره :

لا تسأل المرء من أبوه وخُذ خِلالَهُ ثم صِلهُ أو فاصْرِمِ (٢)

— تلك قصتى أسوقها :

أيها الأرْوَعُ الذى فاق مجدا وسُؤددا
إن عندى علاجَ ما بتّ منه مُسهَّدا
فاستمِعْها عجيبةً غادرتنى مُلدَّدا (٣)
أنا من ساكِنى سَرُو جِ ذوى الدين والهدى
كنت ذا ثروة بها ومطاعا مسوّدا
مَرْبَعى مألَفُ الضيو فِ ومالِى لهم سُدى
طالما ساعَدَ الزما نُ فأصبحتُ مُسعَدا
فقضى الله أن يُغَيِّر ما كان عوَّدا
بوّأ الرُّومَ أرضَنَا بعد ضِغْنٍ تولَّدا
فحَوَوا كلَّ ما استسرَّ بها لى وما بَدَا

---

(١) مال (٢) فاقطع (٣) شديد الخصومة

فتطوَّحتُ فى البـــلا دِ طريدا مُشَـــرَّدا
أجتدِى الناسَ بعدما كنتُ من قبل مُجتَدَى
وترى بى خَصَاصةً[1] أتمنّى لهـــا، الردى
والبـــلاءُ الذى بهِ شَمْلُ أُنْسِى تبَـــدَّدا
اســتِباءُ ابنتى التى أَسَرُوها لِتفتَـــدَى
فاستَبِنْ مِحْنتى ومـــدَّ إلى نُصـــرتى يَدا
وأَجِرْنى من الزما نِ فقد جارَ واعتدى
وأعنِّى على فَكَــا كِ ابنتى من العِدى
واسمح الآن بالذى يَتَسَنَّى ، لِتُحْمَـــدَا

قال الراوى : سبحان ما أبدعه ! فما أعظمَ خُدَعَه ،وأخْبَثَ بِدَعه ! ولم يكد الوالى يستمع إلى قصيده ، حتى أُخذ ببلاغته وحسن بيانه ، ففرض له من وفير كنوزه ، ماأطال ذَيْلَه[2] ، وأقْصَرَ لَيْلَه ، فنهض الشيخ من لَدُن الوالى جَذْلان بما آتاه الله ، فتبعتُه ، حتى إذا خرج من بابه ، قلت له هنئْتَ بما أوتيت ، وسَعِدْتَ بما أعطيت .

فقال الشيخ . تعساً لمن عاب الأدب ، وسكتَ عن الطلب ، وطوبى لمن جدَّ فيه ودأب ، ثم ودَّعنى وذهب ، وأودع قلبىَ اللَّهب !

وما زلت أسمعه يردد ، وهو يَجِدُّ فى الفرار :

---

(١) فقرا
(٢) كان أبو زيد فى استجدائه يلبس طيلسانا قصيرا مستعارا ليدلل به على فقره وسوء حاله .

عش بالخداع فأنت فى دهرٍ بنوه كأسْدِ بيشة[1]
وأدِرْ قناةَ المكر حتى تستديرَ لك المعيشة
وصِدْ النسورَ فأن تعذّرَ صيدُها فاقنع بريشة
واجنِ الثمارَ فإن تفتْـكَ فرَضِّ نفسَكَ بالحشيشة
وأرحْ فؤادَكَ إن نبا[2] دهرٌ من[3] الفكرِ الطيشة
فتغايرُ الأحداثِ يؤْ ذِنُ باستحالةِ كُلِّ عيشة

ردّدها، حتى خبا الصوت وتوارى الشيخ، فلم تعد ترمقه الأنظار . . . .

---

(١) مأسدة مشهورة بأرض اليمن القديمة .
(٢) شذ . (٣) بسبب .

توبة أبى زيد ولزومه المسجد

أبو زيد يتوب إلى الله فى جامع البصرة

قال أبو زيد فى أواخر أيامه، بينما جلس فى مسجد البصرة، يطرى أهلها، ويعدِّد مناقبهم، ويتلو مآثرهم، يعرِّف بنفسه، ويتوب إلى الله :

نشأتُ بسَرُوج، ورُبيتُ على السُّروج، وولجتُ المضايق، وفتحت المغالق، وشهدت المعارك، وألنت العرائك . . . سلوا عنى المشارق والمغارب، واستوضحوا أمرى من نَقَلَةِ الأخبار، ورُواة الأسمار، لتعلموا كم فجٍ سلكت، وكم لبٍّ خدَعْت، وفُرص اختلَست، وكامنٍ من الأمر استخرجته بالرُّقى، وثرىٍّ استلنته حتى بكى، ولكن فرَط ما فرط والغصن رطيب، وثوب الشباب قشيب، أما الآن — وقد اعوجّ القويم، وأقبل الليل البهيم، فليس إلا النَّدم إن نفع، وترقيع الخرق الذى اتَّسع — أدعو الله بالتوفيق فى المتاب، انه رفيع الدرجات، مجيب الدعوات . ثم أنشد :

استغفر الله من ذنوب   أفرطتُ فيهن واعْتَديت

كم خُضتُ بحر الضلال جهلا   ورحتُ فى الغيِّ واغتديت

وكم أطعتُ الهوى اغترارا   واختَلتُ واغتَلْتُ وافتَريت



أبو زيد يتخذ طريقه إلى البصرة ، يعكف فيها على التّـوبة

« أما الآن — وقد اعوج القويم ، وأقبل الليل البهيم ؛ فليس إلا الندم إن نفع ، وترقيع الخرق الذى اتسع ... »



وكم خلَعتُ العِـذار سعيا إلى المعاصى ، وما ونَيت
وكم تنـاهيت فى التخطّى إلى الخطايا وما انتَهيت
فليتنى كنت قبلَ هـذا نسياً ، ولم أجنِ ما جنَيت
فالموت للمجرمين خيرٌ من المساعى التى سعَيت
يارب عفواً ، فأنت أهلٌ للعفو عنى وإن عَصَيْت

قال الراوى : فطفقت الجماعة تَمدُّه بالدعاء ، وهو يقلب وجهه فى السماء ، إلى أن دمعت أجفانه وبدا رُجفانُه ، فصاحَ الله أكبر ! الله أكبر ! ... بانت أمارة الاستجابة ، وانزاحت غشاوةُ الاسترابة ، جزيتم يا أهل البصرة خيرا فشكراً لبلدكم ثم شكراً ، فسر القومُ لسروره ، وأعطاه كلٌّ من ميسوره ، فجمع مالاحلالا على غير عادة ، دفعته إليه جموع المصلين مُنقادة . . . فلما همّ بالإنصراف ، تبعته إلى حيث أمن التحسُّسَ والتجسُّس ، فقلت له يا هذا لقد أغرَبْتَ فى هذه التّوبة — فما رأيك فى التوبة ؟

فقال الشيخ ، أقسم بعلام الخفيّات ، وغفّار الخطيّات ، إن شأنى لعُجاب وإن دعاء قومك لمجاب ... فقلت زدنى إفصاحاً ، زادك الله صلاحاً ...

قال : وأبيك ، لقدقمت فيهم مقام المريب الخادع ، ثم انقلبت بَجأة انقلاب المُنيب الخاشع ... ثم ودَّعنى وانطلق ، وأودعنى الفكر والقلق — فلم أزل أرقب أخباره ، وأتشوف آثاره ، أسأل الركبان ، وجوّابة البلدان ، فكنت فى كل ذلك كمن حاور عجماء ، أو نادى صخرة صماء ، إلى أن لقيتُ بعد طول الأمد وتبريح الكمد ركبا قافلين من سفر ، فقلت هل من خبر ...؟ فقالوا إن

عندنا لخبراً أغرب من العنقاء ، وأعجب من نظر الزَّرقاء(١).فسألتهم الإيضاح وزيادة الأفصاح ، فحكوا أنهم نزلوا بسُروج، فرأوا أبا زيدها المعروف ، قد لبس الصوف ، وأمَّ الصفوف ، وصار فيها الزاهدَ الموصوف ، فقلت أتعنون صاحبَ المقامات ، فقالوا إنه الآن صاحبُ الكرامات ، فحفزنى إليه داعى الشوق ، فرحلت من فورى إلى سُرُوج ، فاذا بشيخها فى مسجده ، وقرارة متعبَّده ، وإذا هو قد نبذ صحبة صحابه ، واستقام فى محرابه ، فهِبتُه مهابة من دخل على الأسود ، ووجدته ممن سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، فلما فرغ من تسبيحه وتحميده ، حيّانى تحية من يعرفنى ، ثم أقبل على أوراده ، وتركنى أعجب من اجتهاده ، وأغبطُ كلَّ من يهدى الله من عباده ، ولم يزل فى قنوت وخشوع ، وسجود وركوع ، حتى أكمل إقامة الخمس ، وعندئذ أخذ بيدى إلى بيته ، فشاركته ما كان من خُبْزه وزيته ، ثم نهض إلى مُصلاه وعكف على مناجاة مولاه ، حتى التمع الفجر وحق الأجر ، ثم أعقب تهجده بالتسبيح ، واضطجع ضجعة المستريح،وجعل يرجع بصوت فصيح :

أندُبْ زماناً سلفَا سوَّدْتَ فيه الصُّحُفَا
ولم تزل معتكفا على القبيح الشَّنِعِ

• • •

كم ليلةٍ أودعتَها مآثماً أبدَعْتَهَا
لشهوة أطَعْتَهَا فى مرقدٍ ومَضْجَعِ

• • •

وكم خُطاً خطوتَها فى خِزْيةٍ أحدَثْتَهَا
وتوبة نكثتَها لِمَلْعَبٍ ومرتعِ

(١) كان المثل يضرب بحدة بصر الزرقاء هذه ، وهى امرأة من اليمامة .

. . .

فالبَسْ شعار النَّدم   واسكب شآبيب الدَّمِ
قبل زوالِ القَدم   وقبلَ سُوءِ المَصْرَعِ

. . .

إلامَ تسهو وتني   ومعظم العُمْرِ فني
فيما يضرُّ المُقْتَنِي   ولَسْتَ بالمرتدعِ

. . .

ويحكِ يانفسُ احرصى   على ارتيادِ المَخْلَص
فأن مثواكِ غدا   فى قَعْرِ لحدٍ بلقعِ

. . .

لا فرق أن يحلّه   داهيةٌ أو أبْلَهُ
أو مُعسرٌ أوْ مَنْ له   ملكٌ كملك تبَّعِ

. . .

فياخسارَ من بَغَى   ومن تعدّى وطَغَى
وشبَّ نيرانَ الوغى   لمطعمٍ أو مطمعِ

. . .

يامن عليه المتّكلْ   قد زاد ما بى من وَجَلْ
لما اجْترحْتُ من زَلَلْ   فى عُمرىَ المضيّعِ

. . .

فاغفِرْ لعبدٍ مجُترِمِ   وارحمْ بُكاءَ المُنْسَجِمْ
فأنت أولى من رَحِمْ   وَخَيْرُ مدعوٍ دُعِى

قال الراوى : ولم يزل يرددها بصوت رقيق ، فيه زفير وشهيق ، حتى أصبح الصباح ، وظهر نور النهار ولاح ، فانطلق إلى مسجده ، فانطلقت فى أثره ، وصليت مع المصلين خلفه — فلما انفض من حضر ، رأيته يميل إلى الانفراد ، ففكرت فى الارتحال ، فكأنه تفرَّسَ ما نويت ، وكوشف بما أخفيت — فقال : يابنى : إذا عزمت فتوكل على الله — فقلت أوصِنِى أيها العبد الصالح ، فقال : اجعل الموتُ نصبَ عينيك ... فودّعته وعبراتى يتحدرن من المآقى ، وزفراتى يتصاعدن من التراقى ، وكانت هذه بيننا خاتمة التلاق ...

مَوْتُهُ وتأبينه في البَصْرة

(١)

قيل أمضى «أبو زيد» بقية أيام حياته ، بعد توبته إلى الله ، فى مسجد البصرة ، زاهدا متعبدًا يقضى سحابةَ نهاره فى مسجدها الجامع ، فاذا ما جنّ الليل ، انكفأ إلى بيته فأثْرَدَ فى زيته .. وأكل ، ولم يزل فى البيت ، بين خشوع وقنوت ، وركوع وسجود ، حتى يغلبه النُّعاس ، فيضطجع اضطجاع من ينتظر بزوغ الفجر بقلب هاجد وصبر نافد ...

قيل أمضى «السّروجى» بقية أيامه على هذا النحو ، حتى كبرت سنّه ، وتقوّس ظهره ، وعرجت رجله اليمنى ، وثقلت مشيته ، ولزمت عكازته ، وصعُب انتقاله بين البيت والمسجد ، فرثى الناس لحاله وتمثلوا بمآله ، وأكثروا من الالتفاف حوله ، يستمعون إلى جيد لفظه ، وينتفعون بقيم وعظه ، ويعينونه على القيام والقعود ، والذهاب والإياب ...

وبينما هو ذات يوم يهمّ بالقيام ، بعد أداء صلاة العصر ، لم يستطع أن يجمع قواه ، فسقط من فوره ، وفارق الحياة ... فسبحان من له البقاء ...!

وتصايح الناس : أن قد قضى الشيخ الورع ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! ثم ساد المسجدَ سكونٌ رهيب ، واستغرق الناسُ فى النحيب ، وتعاونوا على نقل جثمان الشيخ إلى بيته ، وهناك غسّلوه وكفّنوه ، وشيّعوا جنازته . وفى مقابر البصرة ، وبين أعلامها الراحلين ، واروه التراب ، وعلى بلاطة من الرّخام ، رقموا العبارة الآتية :

هنا يثوى « ذو الطِّمرين » ، بطل المقامات ، وصاحب الكرامات ، من كنيته أبو زيد ، ونِسْبته إلى سَروج ، المطهر بن سلار ، النحوى اللغوى ، كانت وفاته فى جمادى الآخرة عام اثنين وأربعين وخمسمائة من هجرة رسول الله .

***

وتناقل الركبان خبر وفاة « أبى زيد » ، فكانت لذلك رنّة أسى عميق فى كافة الأمصار ، وتذاكر المصلون فى جامع البصرة أخبار الشيخ ، ذكروا بدايته ونهايته ، وذكروا لفظه وفكاهته ووعظه ، وترحّموا عليه ، وعقدوا النية على تأبينه ، وتعديد مناقبه . وسرى خبر تأبين الشيخ السروجىّ مسرى الريح ، فاستعدت للحضور إلى البصرة وفود الأقطار فى اليوم المعلوم ...

ونادى المنادى فى البصرة عشية يوم : « يأهل البصرة ! غداً — عند الزوال ، يجتمع القوم ، لتأبين الشيخ الراحل ، أبى زيد ، طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مآبه ومثواه .. احضُروا أثابكم الله ! »

(٢)

وشهدت البصرة صباح اليوم الحادى والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام اثنين وأربعين وخمسمائة من هجرة رسول الله يوماً ، عبقرياً ، زَخرت فيه بوفود القادمين الناسلين من الفجاج ، للاشتراك فى تأبين بطل المقامات وصاحب الكرامات ، الشيخ السَروجى ، أبى زيد — المطهَّر بن سلار ...

فلما انتصف النهار ، اجتمع القوم فى السّقيفة الكبرى المجاورة لدار الأمارة ، وكانوا عديدا لا يحصى ، ومشهداً لا ينسى ، ووفودٌ من اليمن ، ووفود من مصر ، ووفود من فارس ، وأفراد من كل فج زاره أبو زيد ، جاءوا جميعاً ليشهدوا تأبين الشيخ ، وليذكروا محاسنه ، وليترحّموا عليه ...

وكان العجيج والضجيج يأخذان بالأسماع ، فوقف شيخٌ وقور الطلعة

يقول : سماع ياقوم سماع ! فصمت الحاضرون ، وعم المكان سكون عجيب ، فارتقى منبر الخطابة شيخٌ طويل القامة، مرفوعُ الهامة ، جهبذ علامة ، رنت إليه الأنظار ، وأحدقت به الأبصار — فمن ترى يكون ؟

إنه الشيخ الوقور ، منشىء زمانه ، وأمام عصره وأوانه ، أبو محمد القاسم ابن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى ، أول المفجوعين فى أبى زيد — قال :

يامعشر الوافدين !

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله العلّى العظيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، أما بعد : فأن أعظم المصائب قاطبة ، المصيبةُ فى رسول الله ، صلواتُ الله وسلامه عليه ... إن فى الله عزاءً من كل رُزء ، وخلفاً من كل هالك ...

يامعشر النازلين !

— سبحان واهبُ الحياة وسالبُها ، وفارضُ المنيّة على خلقه وموجبها سبحانه أعطى ووهَب ، ثم استردّ واستلب ...

— منَحنَا أبازيد ، أستاذَ الأستاذين، وشيخَ المحنّكين ، وقُدوَةَ الشحّاذين أعجوبةَ الزمان ، وطريقَةَ الأوان ، صاحبَ الطيلسان ...

صْنوَ الاغتراب ، حليفَ العكازة والجراب ...

جوّابَ الآفاق ، شديدَ الأملاق ...

الأديبَ الذى لم يشق له فى مجاله ُغبار ...

والعجيبَ الذى لم ُيخش عليه فى تجواله ِعثار ...

العالمَ الفقيه ، من ليس له ضريبٌ أو شبيه ...

جُهينةَ الأخبار ، وحقيبةَ الأسرار ...

— منحنا إياه — ثم استأثر به فناداه ، فلبَّى دُعاءَ مولاه ...

وربَّ قائل يامعشر الوافدين :

واهاً لهذا الشيخ — واه ! ممَّا جَنَت يداه ، وعَصَى فيما أتاه ...

ولكنَّ الرَّجلَ تاب وأناب ، ورجع عن غيِّه وأثاب ...

لَبس فى أواخر أيامه الصُّوف ، وأمَّ الصفوف ، وغدا فى البصرة الزَّاهدَ الموصوف ...

يقرأ الاوراد ، ويوالى الاجتهاد ، لم يزل فى قنوت وخشوع ، وسجود وركوع ، حتى قَبَضه الله إلى جواره ...

يامعشر النازحين !

لقد صَحِبْتُ الشيخَ منذ صادفتُه وعرفتُه ، فوجدتُه نحويًا لا يجارى ، ولغويا لا يبارى ...

فاتَّخذْتُه صديقاً ، وخِلًّا ورفيقاً ...

ناولْتُه قلمى فكتب ، ونسبتُه إلى سَرُوجِ فانتسب ، وكنيتُه أبا زيد ، فما لام ، ولا عَتَب ...

أطلقتُه فى الفيافى والقِفار ، وأنزلْتُه الحواضرَ والامصار ...

وقلَّبتُه فى القوالب ، وأقرفته المثالب (١) ...

وأدنيتُه من الحكام ، وأوردتُه مواردَ الاختصام ، وجعلتُه أُضحوكة الخاص والعام ...

---

(١) أركبته الخطايا والعيوب

وأجريت الحكمة على لسانه ، ووثقتُ من براعتِه وافتنانِه ...
فكان لى أطوعَ من بنانى ، وأقربَ من جنانى ...
لبّى دعوتى تلبيةَ المُطيع ، وبذل فى معونتى جُهدَ المستطيع ...
فحققتُ بمُواخاته غاية ، وأدركت نهاية ...
ورب قائل يامعشر القادمين :
تبًّا لهذا الحريرىّ من هَذِر ، مفتاتٍ أشِر ...
لم يرْعَ الله فى الحُرمات ، حين أملى هذه المقامات ...
سخّر الشيخَ فى المعصيات ، حتى أركبَهُ الخطِيّات ..
ولكن يامعشر النازحين :
إذا كانت الأعمال بالنيّات ، فأىُّ حرج على من أنشأ المُلَحَ [١] للتنبيه دون التمويه ، والتهذيب دون الأكاذيب ؟!
فالخيرَ والله يارفاق أردْتُ ، والنُّجْحَ قصَدْتُ ، والشيخُ مما عَلِقَ به براءٌ ، أىُّ براء ...
— فارفعوا ياقوم أكُفّكُم بالدّعاء ، وقلبوا الوجوه فى السماء ...
وأسألوا للشيخ المغفرة ، وحُسنَ التّوبة والمعذرة ...
واعلموا ياقوم أن العِبْرَةَ بالخواتيم ، والمقصدِ السليم ....
وأنتم أيها القوم الذين جازت عليهم ألاعيبُ الشيخ !
تأسَّوْا ! فالمثَلُ السائر يقول :
ما ذَهَبَ مِن مالك ما وَعظك ، ولا أُجْرَمَ فى حقّك من أيْقظك ... [٢]

(١) يشير إلى إنشائه « المقامات » يريد بها التنبيه والتهذيب (راجع مقدمة المقامات)
(٢) أى من أيقظك من الغفلة باستلاب بعض مالك .

(٣)

ثم نهض شيخٌ فارع ، خطيبٌ بارع ، فصيحُ اللسان ، مَكينُ البيان ، تبدو عليه أمارات الاغتمام ، والوجوم والاهتمام ، تهامس الناس حين قام ... هذا هو الحارث بن همام ...

وما أن بدت طلعة الشيخ الوقور ، حتى ساد صمت كصمت القُبور ...

عندئذ بَسْمَلَ الرَّجُلُ وحَوْقَل ، وحمدَ اللهَ الذى لا يحمد على مكروه سواه ثم قال :

إن فجيعتى فى أبى زيد – بالغة لا تعدلُها غير فجيعة الشيخ [مشيرا إلى الحريرى]

ما الحياةُ ياقوم إلا برقٌ خُلَّب ، وريح قُلَّب ، لقد قَضَى سِراجُ الغُرَباء ، وتاجُ الأُدباء ، المتحدث الألْمَعِى ، والأريب اللَّوذَعِى ، راويةُ الأشعار ، وزَامِلةُ الأسفار ، وناقِلُ الأخبار ، وراوى الأسمار ؛ طارق الأبواب ، وخادِع الألباب ، ومُبدِعُ العَجَبِ العجاب – أبو زيد داهية سَروج !

قضى الشيخ السَّروجىُّ فانطفأ السِّراج ، وخَبَا الضوء الوهَّاج ، فخلَّف بموته فى الجوِّ دُكْنَة ، وفى الألسُن لُكْنَة ، خلَتْ منـــه المحافل ، فندبه القاعِد والراحل ، فسبحان من له الدوام ! [صمت طويل]

قَضى إلْفِى ... ورفيق ، وغُرَّةُ أيامى ... ونورُ طريقى ، مَنْ مِنْ أجْلِه جُبْتُ الآفاق ، وهَجَرت الرِّفاق ، واستعذبتُ العذاب ، وألِفْتُ الاغتراب .
قضى من قضيت العمرَ أتبعُ ظِلَّه ، أرمقُه فى المحافل يحتال ، ويلجُ فى عدوانه ويَغتال ، لا أهتِكُ سِتْرَه ، ولا أفْضح أمْرَه ، أدعُه يَسدرُ فى غلوائه ، ويسعى

وراء نعمائه ، وكنت لعذوبة إيراده (١) ، أتركُه لمرادِه ، ولخصائصِ آدابه ، أتعلَّق بأهدابه ...

فكنتُ به أجْلُو همومى وأجتَلى زمانِىَ ، طَلْقَ الوَجْه مُلْتَمِعَ الضِّيا
أرى قُرْبَه قُرْبى (٢) ومَغْنَاه (٣) غُنْيَةً ورؤيته رِيًّا ، ومَحْيَاهُ (٤) لى حَيَا (٥)

قضى من كُنت — كما قال شيخنا الحريرى ناسجُ المقامات وصاحبُ البلاغات — أراه قد انتدب لتعليم ، وجال لقصدٍ سليم ، فالأعمال ياقوم بالنِّيات ، والشيخ ياقوم لم يرتكبْ المَعْصيات حباً للذات ، وإنما كان أخا عَيلةٍ (٦) هَاضَتْهُ الدهر (٧) فاهتضم ، وأبا صِبْيَةٍ غَدَوا مثلَ لحم على وَضَم (٨) ، وأبو العَيْلةِ المُعْسِرُ — إذا احتال لَمْ يُلَمْ ...

فارفعوا ياقوم معى الأيدى بالدّعاء ، وقولوا : اللهم يامُحْيي الرُّفات ، ويادافعَ الآفات ، وياواقِى المخافات ... أَخْرجه من ظلمات الظالمين ، وأدْخِله برحمتك فى عبادك الصالحين ... اللهم نوِّر عليه قَبره ، وآنسه فى وَحشته ، واغفر اللهمَّ نُكْرَه ، وآسِهِ فى غُربته ، فلقد تاب الشيخُ وأناب ، وعَضَّ على البنان بالنّاب ، وقَضى بقيةَ حياتِه زاهداً عابداً هاجداً ... اللهم ألْبِسْهُ رِداءَ الأكرام ، وأحِلَّه دَارَ السَّلام (٩) ، وأحْشره فى زُمرة أهلِ الإسلام ، إنك سميعٌ مجيبُ الدعوات ، غافِرُ الزّلات ، مُقيلُ العثارات ، تَجَلَّت قُدرتك ... ياأرحم الرّاحمين ...

قيلَ ، فكانت الجموع ترفَع الأُكُفّ بالتأمين ، تسأل للشيخ غفران

---

(١) ما يورده من الكلام (٢) أى رحما ونسبا (٣) منزله (٤) حياته
(٥) غيثاً ومطراً أوحياة (٦) صاحب عيال (٧) هاضه الدهر أى أخنى عليه وكسره (٨) الوضم قطعة الخشب يقطع القصاب اللحم عليها (٩) الجنة

الذنوب، من علام الغيوب، حتى فرغ الحارث بن همام من خطبته، وآب إلى نُجعتِه [١] ...

(٤)

ثم صعد المنبرَ شيخ حَسَن السَّمت [٢]، جهْورِىُّ الصوت، تبدو عليه دلائلُ المهابة، والحكمة والأصابة، فحمد الله — وصلى على نبيه وآله، وتمثّل بنهايته ومآله ...

تغامز الناس حين استوى الخطيب، ترى من يكون ذلك الأريب ؟ ..

— إنه قاضى الإسكندرية، ينوب عن البقيَّة [٣]، يلقى كلمة القضاء، فى الداهية الدهياء ...

قال :

« سبحان من طاعتُه غُنم، ومَعْصيتُه غُرْم، ومخالفتُه شُؤم ...

سبحانَك مُزيل الغشاوات، وكاشفَ السَّتارات، وماحِقَ التُّرهات، ومُجزِىَ المروءات، ومُرْبى الصَّدقات ... [صمت يطول نوعا]

أى واللهِ ياقَوم ! لقد مضى أبو زيد، داهيةُ الكيد، وبازُ الصَّيد، وكاسِرُ القَيْد ...

لقد شهدت الرجل يجول، ويلِجُّ فى عُدوانه ويصول، فكنت أقول : أبو عَيْلَة [٤] مسئول، يمعنُ فى افتنانه، وزوره وبُهتانه، ليُصلحَ من شانه ... يغشى مجالس الحكام، يفتَعِلُ الخلافَ والاختصام، ليفوزَ بالعطيَّة فوزَ [الكرام] ...

---

(١) مكان قعوده
(٢) حسن المنظر
(٣) بقية القضاة
(٤) أسرة وعيال

وَوَحقِّ من نصَّبَ القضاةَ للعدل ، وملّكهم أَعِنَّة الفَصل ، ما غاب عنّاقطُّ تدليسُه، وزُورُه وتَلْبيسُه [1]... [ضجة وأصوات : أذكروا محاسن الأموات، فما فات فات ، وما هو آت آت ...]

أى والله ياقوم ! ما قصدت اللوم ، ولا أردت تهتيك الأستار ، وتكشيف الأسرار ، وإنما أردت دفعَ الشُّبهات ، عن الأعلام الثّقات [2] والله ياقوم ما توخّيت إلا التّنبيه ، والذّكر والتّنويه ... إنه ياقوم إن شاعت هذه الفعال ، وذاعت تلكُم الخصال ، واستوى الهُدى والضلال ، لَفَسَدَ الحال ، وساء المآل ، وكثُر حول القضاة القيلُ والقال ...

[ضجة وأصوات : أذكروا محاسن الأموات ، فما فات فات ، وما هو آت آت ...]

والله ياقوم ما أعجزنا قطُّ معشَر القضاة فَضْحَ آفكٍ مُريب، ولا تكشيف آثمٍ مَعيب ، وأنما عاهدنا الله — ألا نَضِنَّ بالنوال ، على طالب سؤال — فقد حَضَّ سبحانَه ، على مواساة المضطر ، واطعام المُعْتَرِّ [3] ... فجعلنا فى أموال الصَّدقات ، قسطاً لذوى المعذرات ...

[ضجة وأصوات : أذكروا محاسن الأموات ، فما فات فات ، وما هو آت آت ...]

أى والله ياقوم ! أشهد للرجل ببراعة الافتنان ، وقوة العارضة ورسوخ الجنان ، قَدَرْنَا له نحن معاشر القضاة ، وأساطينَ الدُّهاة ، بديهَتَه المُطاوعة ، وطريقَتَه المُراوغة ، راقَنَا تسجيعُه ، وعِلْمه وبديعه ، بلونا فى المعارف قَدْره ، وسبَرْنَا فى المكائِد غَوْرَه ، وقرَنَّا إلى ذلك عُسْرَه وخُسْره — فتركناه لحاله ، شفقَةً بعياله — فإن كنّا قد منَحْنَاه ، فابتغاء وجه الله ، وإن لم نكن قد

---

(١) تخليطه الحق بالباطل (٢) العاملون من العلماء يريد بهم القضاة

(٣) الذي تبدو حاجته دون أن يسأل .

حبسناه ، فذلك لعُرْفٍ تخذناه ، نحن معاشرَ القضاة — الأَلْدينَ الأديب اللبيب ، الحصيفَ الأريب ، ولو كان أحْيَل الثقلَين، مثَل ذى الطِّمرين[١] …

[ضجة وأصوات : أذكروا محاسن الأموات ، ودعوا ما فات لما هو آت …]

أى والله ياقوم ! لقد ذهب الرجل ومضى ، وانتهى مكرُه وانقضى ، ولم يبق إلا إستخراجُ العظات مما فات …

خذوا ياقوم من حياته عبرة ، ومن تجاربى خبرة… اجعلوا القضاءَ محَجّةَ الصواب ، واجتنِبُوا ما يَعيب وما يُعاب ، واكشفوا النّقاب ، عن حقيقة الطلاب ، واطلبوا الرّزق الحلال ، وعِفّوا عن السؤال ، ولا تتّخذوا الأدب مطية ، للنوال والعطيّة ، فتلك لعَمْرى شيمة زريّة ، ووصيمة[٢] دنيّة …

غفَرَ اللهُ خطيئةَ الشيخ … !

قيل ، كانت الجموعُ ترمُق الخطيب ، تسمع ولا تستجيب ، وتستغرق فى النحيب[٣] وتستمطر الشآبيب ، على الفقيد الحبيب … حتى انتهى القاضى من كلامه ، وزايل المنبرَ ، فجلس مع أبناء أعمامه[٤] … ثم ساد الهَرَجُ ، وكثُر المرَج ، فوقف واقفٌ وقال :

---

(١) هو أبو زيد ، سمى بذاك لأنه كان يختال فى طمرين [أى ثوبين] باليين ، والثقلان هما الأنس والجن (٢) وصمة (٣) البكاء بصوت مسموع (٤) بقيةوفد القضاة

يامحبّ أبي زيد ـ أنصتوا ، أثابكم الله !

ـ كفْكفِوا العَبَرات

ـ وصَعِّدوا النظرات

ـ واطلبوا المغفِرات

ـ من خالقِ البريّات

... للشيخ الفانى

... المُتْرِب[1] العانى[2]

فطفِقت الجموعُ تُصَعِّد النظرات ، وتطلب المغفرات ، من خالق البريّات ، للشيخ الفانى ، المُترب العانى ...

---

(١) من المتربة وهى الفقر

(٢) من العنو وهو الخضوع والذل .

رجعة أبي زيد

(١)

على شاطىء الأعراف وجدْتُه .....!

عكف الرجل آخر أيامه فى مسجد البصرة، يذكر الله آناء الليل وأطرافَ النهار ، يردِّدُ فى أوراده — مخاطباً نفسه ، متَّجها إلى مولاه :

وَيْحَكِ يا نفس احرصى　　على ارتيادِ المَخْلَصِ
واعتَبرى بما مضى　　من القرون وانقضى
فأنّ مثواكِ غدا　　فى قعرِ لحدٍ بلقعِ
يامن عليه المُتَّكل　　قد زاد ما بى من وَجَل
لما اجترَحتُ من زَلَلْ　　فى عمرىَ المُضَيَّعِ
فاغفرْ لعبدٍ مُجترِم　　وارحمْ بكاه المُنْسَجِم
فأنت أولى من رَحِم　　وَخَير مَدْعوٍّ دُعِى

قال الراوى : فلم يزل يردِّدها بصوت رقيق ، ويصِلُها بزفير وشهيق ، حتى بكيتُ لبكاء عَيْنَيه ...

تلك كانت آخرة الشيخ فى دنياه ، وتوبتُه مما جنت يداه ، وفاتحة استقباله لأُخراه ...

وأمعن الرَّجُلُ فى التوبة ، وما أكثَرَ ما حلت به النَّوبة [١] ، حتى ظنَّ

---

(١) نوبة التجلى والاستغفار !

القوم من فرط ما تاب ، أن المولى قد استجاب ...

ثم شاخ الرجل وشاب ، وسأل اللهَ حسن المآب . وفى عشيةٍ عبقرية ، وافته المنية ، وزايل دنيا الفناء إلى دار البقاء ...

وقد كنت كما كان الحارث بن همام ممن أُغرِموا بأباطيل لغوه ، وأضاليل لهوه ، صَحِبْتُه أينما ذهب ، أستمتع بفرائده ، وأقتبس من فوائده ، أشهد فى المحافل مَكْرَه وأستبين فى المواقف نُكره ، حتى علِق شخصه بفؤادى ، وانعقد حوله مرادى .

وكثيراً ما تراءى الرجل لى فى اضطجاعى ، ورقدتى ، واهتجاعى ، ألمحه دائماً مع قلّةٍ من الراقدين فى الأعراف ، لا هم فى أهل الجنة — ولا فى أهل النار ، فسبحان الواحد الغفّار !

ترى ألَمْ يغفرِ اللهُ ذُنوبَه ؟ لقد تاب الرجل فى مسجد البصرة ، وخَشَع حتى زالت عنه الحسرة ، أمدّته الجموعُ بالدعاء ، وهو يقلّب وجهه فى السماء ، وبانت له ولهم أمارة الاستجابة ، وانجابت غَشاوة الاسترابة ... ولكن سبحان علّام الخفيات ، وغفّار الخطيات !

رأيته مرّة فيما يرى النائم — كأنما ينفضُ عن نفسِه التراب ، ويتفقّد العُكّازة والجراب ، فأدركتُ أن به حنيناً إلى الدُّنيا ...

فأسرعت إليه — فرفع إلّى كلتا يديه ، وأنهضتُه فنهض ، فلما وقف ، اهتزّ وانتفض ، فتساقط عنه الغبار ، وأمسك بعصا التسيار ... [وهم بالمسير]

فلما همّ بالرحيل ، لاحقه عزرائيل — فنادى بصوتٍ رنّان : إلى أين أيها الشيخ — إلى أين ، وحتّام النأى والبيْن ...؟!

فالتفت الشيخ وراءه ، فإذا ملاك الموت يهمّ باحتجازِه ، ويجرُه من عُكازه ...

فَبَسط الرّجل له أكفَّ الضَّراعة ، وصدَر عن نَفسٍ مكلومة ملتاعة ، وقال مستعطفاً : « بالله ياهادم اللذات ، ومفرِّق الجماعات — إلاَّ تَرَكْتَنى بضعَ سُويعات ، أَلْقَى فيها اللِّدات (١) ، واسترجع شيئاً مما فات ... ! »

فغضب عزريل ، ونفثَ من فيه زفيراً كالسَّعير ، وقال :

« ياصنْوَ البوَار ، وزامِلَةَ الإفلاسِ والعار ...!

أما نادى بك الموتْ ... أما أَسْمَعَكَ الصَّوْتْ ؟!
أما تخشى من الفَوْت ... فتحتاطَ وتَهْتَمّ (٢) ... !
فحتّام تجافيـــك ؟ ... وإبطاءُ تَلافِيك (٣) ... !
تُعَاصِى النَّاصِحَ البرّ ... وَتحتَــالُ وتَزْوَرّ (٤) ... !
وتَنْسَى ظُلْمَــةَ الرَّمس ... ولا يَكفيكَ ما تَمّ ... !!

فعاد الرجل إلى استعطافه ، وميله وإنحرافه ، وقال :

« بالله يا حارس الأموات : إلّا تركتنى — أطلّ على الدنيا طَلَّةْ ، لأَروى غُلَّة ، وأَشفى عِلّة ... يقال بها اليوم للأدب سوق ... إليه جدُّ مشوق — بالله إلا تركتنى أراه ... ! »

فضاق به عزريل ذرعا ، وأرغى وأزبد ، ر برق وأرعد ، وأرسل من فيه زَفْرَةً كأنها الشواظ ، لفح حرُّها وَجْهينا ، فاستغرقنا فى النُّعاس ...

فلما أفقتُ ، ألفيتُ الشيخَ قد أفاق ، وتفقدْنا مَلَاكَ الموت ، فلم تقع أنظارُنا عليه — فدلفنا على الصِّراط ، حتى انتهينا إلى فتحةٍ كَسَمِّ الخياط — فاذا بها المَعْبرُ بين الآخرة والدنيا ... فنفذْنا منها بقدرة قادر ... وشققْنَا سبيلنا عَبْرَ المقابر ، حتى بلغنا مشارف الدنيا ...

---

(١) الاتراب والأقران . (٢) من الهم . (٣) للمعاصى (٤) تنحرف

(٢)

وإلى سوق الأدب صحبتُه ..

[فى الطريق إلى السوق]

لم يغب عن بالى أن السَّروجىّ من الآخرة آبق ، مغافِل مارق — غافل عزرائيل ، ولاذ بالفرار ، وأن الزَّبانيَةَ تتعقَّبُه ، وتتربص به الشرّ وتترقَّبه ، فاستغفرت الله من ملازمته ، واصطحابه ومخادنته ...

وهدأ روعى فى المنام ، لما أدركت أن ذلك ليس إلا أضغاث الأحلام ، وأهاريف الكلام ، فاطمأنت نفسى — وأيقنت إذن ألا تثريب ولاملام .... فحَيَّيت ضيف الدنيا تحية مشتاق إلى يوم التلاق ...

ونظر السَّروجى فاذا كل شىء على ظهر الدنيا قد تغيَّر ، فعجب مما رأى وتحير ...

فقلت : ياهذا ، ما الدنيا إلا كوجه قُلَّب ، ليس لها فى أحوالها أمان ، ولا إليها فى تصاريفها اطمئنان .... حدثنى ياشاعر المفاليق ، وفاتح المغاليق ، عن الأدب فى أيامك .. كيف كانت سوقه ؟

فقال : ياصديق ، دع مافات ، فأن ألحفت ، فهاك المقامات ، مليئة بالغُرر ، والجواهر والدرر ، والمواعظ والعبر ، فافهم منها عن الأدب ما شئت ، فما لهذه المهمة جئت — دعنى أنظر السوق ، فأنى إليه جدُّ مشوق - فأين طريقه ...؟

— من هنا يا أبا زيد .... ها هو المجاز المؤدى إلى السوق .... اسلك معى ....

أبو زيد — ولكن ما لهذا الدَّرب موحش ؟ أمن هنا سوق الأدب ؟

— نعم ياصديق ، وخلِّ طريق ...

أبو زيد — فى أى بلاد الله نحن ؟ أفى العراق ... ؟

— لا ، بل فى مصر ... إن للأدب فى بلادنا اليوم سوقا رائجة ... ولكن ...

أبو زيد — ولكن ماذا — يا صديق ؟

— ولكن الأدب عندنا تجارة ، فيها مكسبٌ وخسارة ...

أبو زيد — لاتبتئس أيها الصديق — فذلك حال الأدب فى كل مكان وزمان ، كانت كذلك حاله فى أيامنا ـ كان هكذا فى كل مكان جُبْتُه ، وكلّ قطر ولجته ....

— ولكن يا أبا زيد ، ألم تكن مصر فى أيامك بلد العجائب وأم الغرائب ؟

أبو زيد — لا ، بل كانت كسائر بلاد الله ، ماألقاه فى الشام ، فى دياركم ألقاه ـ بالله إلا صوَّرت لى سوق الأدب !

— اننا ياصديق مقبلان عليه ، فما حاجتك إلى التصوير ؟

أبو زيد — والله ما سمعت يا بنىّ أن للأدب قطُّ سوقا ! فماذا يُشرى فيه — وماذا يباع ؟ ترى فيم يتّجر الناس هناك ـ أفى الغلال ، أم فى البقول ، أم فى العجول ؟ !

— لا ، يا أبازيد ، ياداهية الكيد ، . بل يتجرون فى الأدب ... !

أبو زيد — وهل فى الأدب تجارة ؟!

— نعم ، وفيم الغرابة ، وأنت القائل فى شكاة امرأتك إلى قاضى الاسكندرية :

واليومَ يا من إليـــه يحتكمُ ... أكسدُ شىء فى سوقه الأدبُ

لا عرض أبنائه يصانُ ولا ... يُرقَبُ فيهم إلٌّ ولا نَسَبُ

كأنهم في ديارهم جِيَفٌ يَبْعُدُ مِن نَتْنِها ويُجتَنَبُ!

أبو زيد — ولكنك ياصديق تأخذ الكلام على الحقيقة، وأخذه على المجاز...

— ها نحن قد أشرفنا على السوق ...! أنظر! هل ترى هؤلاء الآيبين؟ لقد باعوا متاعهم في السوق ثم جرّوا الأذيال قافلين...

أبو زيد — وما لهم قد تدلّت منهم الشفاه، وقطّبت الجباه، كأنما قد أصابهم الخسار ... وحل بهم البوار؟!

— مهلا ياأبازيد ... مهلا ..! فقد أدركنا باب السوق — أنظر! هل ترى ذلك العملاق ...؟

أبو زيد — أين؟ أين يابنيّ - إن بعينيّ إعواراً ... أين؟

— ها هو ... لا تخطئه العين ... واقفٌ بالباب...

أبو زيد — ومن تُرى يكون؟ وما وقوفه بالباب؟ اللصّدِ وقوفه ياترى، أم للترحاب؟

— لست أدرى كيف يكون استقباله، قد يدعك تلج، ويحتجزنى بالباب ...

أبو زيد — ولكنى لا أقوى على المسير بدونك يابنى، تأخذ بيدى وتقتادنى...

— صه ياأبازيد! إذا مابلغت الباب، فحيِّ العملاق، تحية مشتاق، بلسان ذلِق، وحالٍ ملِق...

[على باب السوق]

العملاق — أيها الشيخ الفانى! ما مُرادُك، ولِمَ ارتيادُك؟. وماهذا الجراب وما هذه العُكّازة؟

أبو زيد — يازينَ المحافل، وملاذَ الراحل والقافل، إننى رجل تخذت الأدبَ صناعة، وكانت لى منه بضاعة أيُّ بضاعة، ثم عضّنى الدهر

بنابه ، وأودعنى سمَّ لعابه ، فشقيت ، فليتنى فَنِيت،قبلما جِيت..!

[ثم تنحدر عبراته على خديه حتى تبتل لحيته]

العملاق — وأنت أيها الفتى ... من تكون ؟

— إنى يامولاى فتاه ، علىّ يعتكز ، وبكتفى يرتكز ، فهلا سمحت لى بملازمته ... ؟

العملاق — ادخلا ، ولا تطيلا المكث ! ... هنا بيع وشراء ، لا تكفُّف هنا ولا استجداء ... !

نحن — شكراً ، لسيدنا ، ثم شكراً ... !

[نحن وقد ولجنا باب السوق]

أبو زيد — أهذا سوق الأدب ؟ ما هذا العجيج والضجيج ، ومن هؤلاء الواقفون فى مَدْرَج السوق ؟

— نعم هذا هو سوق الأدب ، وهذا ضجيجه وعجيجه ، وهؤلاء أتباع وأشياع يملكون العِزب والضياع ، من تجارة الأدب ...

أبو زيد — أتباع من يابنىّ وأشياع من ؟

— أتباع العملاق وأشياعه - ذلك العملاق الذى رأيته بالباب ، يدخل الأصحاب ، وينهر الأغراب ... !

أبو زيد — عجبا يابنى - أفى سوق الأدب احتكار ؟ !

— أى وأيم الحق يا أبتاه — فى سوق الأدب احتكار ، وأشياخٌ تجار ، ورواج وبوار ، وكبار طغوا على الصغار ، حتى غدا جوُّ الأدب خانقاً ، لا متنفَّس فيه — لغير العملاق وأشياع العملاق من صفوة الرِّفاق ...

أبو زيد — ومن ترى يكون ذلك العملاق ؟ !

— إنه يا أبتاه ، تاجر قديم ، فى السوق مُقيم ، يعرض كل يوم بضاعة ، ينشرها ويطويها ، فلا تلبث أن تباع ...

وهو يا أبتاه ككل تاجر ماهر ، مخادع ماكر ، يحذقُ نفس الزَّبون ، كالداهية الحيزَبُون ، ويجتذب الآماق(١) ، من كافة الآفاق — فتبارك الخلاق ...!!

فهل بعد هذا فى سوق الأدب براعة ، لمن أمسك باليراعة ، فكانت له مطواعة ؟ !

أبو زيد — إنها يابنى دلائل كساد ، وعلائم فساد ...

خفف بنى من لوعتك ، وهدىء من حِدَّتك ، وطوِّف بى فى السوق مسرعا ما استطعت ...

[نحن الآن فى سرة السوق]

— هنا حلقة السماسرة ، وهنا تجار الجملة ، وهنا تجار التجزئة ، وهنا جماعة الأذكياء ، وهنا ندوة الأشقياء ، وهنا حظيرة المطايا ، وهنا محطة الأذاعة ، وهنا ركن الصحافة ، وهنا الأراجيح ... وخيال الظل ... وصندوق العجب — فبأى ركن أبدأ ؟

أبو زيد — ابدأ بما تشاء ، فأن مكثى ها هنا كما تعلم يابنى قصير ...

— أما السماسرة ، وما أكثر عديدهم فى السوق ، فهم فريق يشتغل فى الســـوق بغير مـال ، ينقلون السلعة من مكان إلى مكان ، ويتقاضون على ذلك أجر الوسيط ، كما كان عرب الحجاز ينقلون بضاعة الشمال إلى الجنوب ، وسلع الجنوب إلى الشمال ، فى رحلتى الشتاء والصيف ، عَبْرَ شبه الجزيرة العربية ، ويتقاضون على ذلك أجر ظهور الجمال !

وهؤلاء ينقلون فى أيامنا بضاعة الغرب إلى الشرق ، ولهم فى

---

(١) الأنظار .

ذلك رحلة واحدة أبدية — لا شتاء فيها ولا صيف!

أبو زيد — عجبا يا بُنىّ، ثم ماذا ...؟!

— أما هؤلاء الذين يجاورون السماسرة، فهم تجار الجملة، أشباه السماسرة، رزقهم الله مالا فاشتروا به جهود الأدباء، ثم أخذوا يبيعونها بيع المستغنى عن المال، فرضوا لكل سلعة ثمناً باهظا، فعزّ منالها على كثيرين ...!

أبو زيد — ثم ماذا ؟

— وهؤلاء المنزوون المتواضعون هم تجار التجزئة، يتعاملون فى الأدب، يعيشون مما يتلقّفونه من شيخ التجّار، وتجار الجملة، رأس مالهم الأمانة، وآفتهم الخيانة، وكسبهم زهيد — من تجارة الأدب ...

أبو زيد — ومع من يابنىّ تعامُلُك؟ أمع شيخ التجّار، أم مع تجار الجملة، أم مع تجار التجزئة ؟

— إن شيخ التجار متعال ...، وتجار الجملة أقيال ... [1]، وتجار التجزئة عيال [2] ... ولاسبيل لمثلى أن يتعامل مع هؤلاء أو هؤلاء ...

أبو زيد — ثم ماذا ؟

— وهنا جماعة الأذكياء ...

أبو زيد — ومن يكونون هؤلاء ؟

— هم جماعة ذوو بصيرة نافذة... فهموا حاجة السوق إلى ألوان من الأدب ترضى أذواق الجماهير، فبادروا إلى الأقلام فسخروها، وإلى

(١) ملوك (٢) عالة يعتمدون على غيرهم

الصحف فخبَّروها ، ودفعوا بانتاجهم إلى التجار فتلقفوه ، وهؤلاء ألقوا به إلى المطابع ، فطبعوه كتباً ، وسرعان ماوجدت الكتب طريقها إلى السوق ... !

بارك الله فى المطابع ، إنها تحيل كل مخطوط إلى مطبوع ، وبارك الله فى الجماهير ، إنها تسمى كل مطبوع كتابا ... !

أبو زيد — وما هذه « المطابع » ... إن وقع الكلمة على أذنى يابنى غريب...

— هى آلات تقوم الآن مقام النُّسَّاخ ، تخرج من الكتاب عشرات الألوف فى بضع ساعات ، وهى عماد سوق الأدب فى أيامنا ، وسبب رواجه فى زماننا ...

أبو زيد — ثم ماذا ؟

— وهنا ندوة الأشقياء ...

أبو زيد — ومن ترى يكون هؤلاء الأشقياء ؟

— هؤلاء نفر ، أفنوا العمر بحثا وتدقيقا ، وتأملا وتحقيقا ، منهم المؤلِّف والمصنِّف ، والناثر والشاعر — صنفوا الأسفار وأبدعوا الأشعار ، وجالوا بسلعهم فى سوق الأدب يعرضونها على التجار ، فلم يكن نصيبها غير الكساد والخسار ...!

أبو زيد — واأسفاه يابنى — ثم ماذا ؟

— تجمع هؤلاء شملهم ، وأقاموا هنا فى ندوة أسموها ندوة الأشقياء..

أبو زيد — ياللعار والشَّنار ! — ثم ماذا ؟

— وهنا حظيرة المطايا ، ولكل سوق كما تعرف حظيرة ...

أبو زيد — ولكنى لا أبصر يابنى فى الحظيرة دوابا !

— انهم ياسيدى مطايا من الآدميين ... يمتطيها كبار التجار فى سوق الأدب ...!

أبو زيد — وكيف كان ذلك ؟ !

— هؤلاء ، ياسيدى ، صنف من الناس لا تعوذهم المقدرة ... هم صفوة من الأدباء وخيرة من المفكرين ، زعموا أن ليس لتجارتهم رواج إلا فى كنف الكبار ... فتقدموا بثمار عقولهم وبنات أفكارهم إلى هؤلاء ، وسألوهم أن يتوّجوها بأسمائهم ، فتوجوها ، ثم دفعوا بها مسرعين إلى المطابع فطبعوها ، وإلى السوق فنشروها - فبيعت ... !! ألاترى أنهم أشبه بالمطايا ركبها كبار التجار ؟ !

أبو زيد — ثم ماذا يابنى ... ؟

— وهنا محطة الأذاعة ...

أبو زيد — يابنى ، إن وقع التسمية على أذنى غريب ! فماذا تكون الإذاعة ؟

— إنها ياسيدى أعجوبة هذا الزمان ، وإن شرحها ليطول ... والوقت لديك على ما أعرف قصير ، جدُّ قصير ... يكفيك أن تعرف أن الكلام يطير منها على أجنحة الأثير ، ينتقل فى سرعة البرق إلى كل مكان - تتكلم أمام المذياع فى مصر — فتسمع على التو فى العراق ...

أبو زيد — عجبا يابنىَّ ، عجبا ! ثم ماذا ... ؟

— والإذاعة فى أيامنا وسيلة من وسائل نشر المعرفة وذيوع الأدب. وهى ثانية الوسائل بعد الطباعة .

أبو زيد — ولم يكون للإذاعة فى سوق الأدب مكان ؟

— إنها ياسيدى فى خدمة الأدب وتجّاره مطيّة — كالبراق ... إذا ما أراد أصحابها أن يشنفوا الآذان بحديث فى الأدب ، أجلسوا الأديب أمام المذياع ، فقرأ كلاما يطير ، يهبط من فوره على آذان السامعين فى كل مكان - ولو أرادوا تطريب الآذان

بنعيق الغربان، أحضروا الأسحم، فأوقفوه أمام المذياع، فضربوه فنعق، فطار نعيقه، فهبط على الأسماع – فى كل البقاع ... !! وأصحاب الإذاعة يجزمون بأن لهم رسالة فى الأدب لا بد أن تؤدى ، وكيف لا يساهمون فى نشر الأدب بنصيب ، وفيهم النابه الأديب ، والمفكر المصيب ... وإذا ما استحكم عندهم داء الأدب ... رأيتهم يسارعون إلى العملاق وأترابه وأضرابه يسألونهم حديثا فى الأدب. وإذا بك إلى جانب جهاز الاستقبال ، تشنف الآذان بنعيق الغربان... أو تطرب الأسماع بخير المتاع... !

أبو زيد — ثم ماذا ؟

— وهنا ركن الصحافة ...

أبو زيد — وما هذه الصحافة يا بنى ؟

— صاحبة الجلال والتيه والدلال ، مدونة الأخبار ، وجامعة الأفكار ... رقعة الأنباء ، ومنبر الأفتاء وحلبة الآراء — على صفحاتها يلتقى الأدباء ، الألباء يتهاجون تارة، ويتمادحون تارة.. تطلع على الناس وقلما تطلع ، فيقرأ كل منها ما لذ له ، بعض الناس يقرأ الصحيفة ويقتنيها ، وبعضهم يطرحها بعد أن يقرأها ويزدريها ... !

أبو زيد — أنها يا بنى تقوم فى أيامكم مقام الركبان ، وجوابة البلدان ، ورواة الأشعار ، وحذاق الأسمار ، وأسواق الأدب — فى جاهلية العرب ... يالها من عجيبة ... !

— وبعض الصحف فى أيامنا يا أبتاه تتنافس فى إقتناء خيرة الكتاب ، لا تبغى الاكتساب ، وإنما تهدف إلى الحقيقة ، تصوب إليها الأقلام ، وأفكار النخبة الأعلام ، حتى تصيب منها العظام ...

أبو زيد — وكيف يكون هؤلاء الكتاب يا بنى - وماذا يفعلون ؟

— لا بد يا أبتاه للصحيفة من كتّاب ، يطلقون عليهم فى أيامنا هيئة التحرير ، مهمتهم التسطير والتحبير ، لا ينفكون يكتبون ، يصلون الليل بالنهار ، ينمّقون الأفكار ويدونون الأخبار ... تراهم كأنما فى طبيعتهم صدوف ، وتخالهم كأنما يخاطبونك من الأنوف ، وليس إلى لقائهم عادة من سبيل .

أبو زيد — عجبا يابنى ... وما سرُّ ذلك ... ؟

— سرُّه يا أبتاه ، فيما نراه ، أن الرَّحى لا تتوقف عن الدوران ، ومطبخ الجريدة - كما يقولون - دائم الاشتعال ، أفتراهم بعد ذلك يستطيعون لقاء الناس ... ؟

أبو زيد — قد يكون لهم العذر يابنى ...

— نعم يا أبتاه ، رعاك الله ! أنهم عن الناس فى شـــغل شاغل ، بعضهم معروف بالكياسة ، يكتب فى السياسة ، وبعضهم يغوص فى لجة الأدب ، يجمع الدُّرر ، ويستخرجُ العبر ، وبعضهم يتلقى الأنباء من كافة الأرجاء ، يعمل فيها الاختيار ، والتبويب والاختصار ، يُبعد التافه من الأنباء ، ليفسح المجال ، لأهم الأقوال... ولكل إنسان يا أبتاه جريدة يرتضيها ، يتعصّب لها ويشتريها ، والناس فيما يعشقون مذاهب ...

أبو زيد — وما حظ الأدب فى هذه الصحافة ؟

— لا تكاد تخلو جريدة يومية ، أو صحيفة أسبوعية ، فى أيامنا من الأدب ، قصّةٌ تقص ، وملحٌ تُرصّ ، وتخريجةٌ بارعة ، ونكتة لاذعة — تحقيق وتدقيق ، وبحث وتعليق ، وسيل جارف من أدب الغرب ، كأنما نضب معين الأدب فى أدمغة العرب !

ونصيب العملاق يا أبتاه فى كل ذلك — نصيب الأسد ... !

أبو زيد — عجباً يابنى ... !

— وحديث سيدنا فى الأدب ، منوع يرضى كافة الأذواق ، فهو يخاطب الخاصة ، كما يخاطب العامة ، وهو كعادته ماهر ، يحذق نفسية الزبون ، كالداهية الحيزبون ... وله الآن فى الأدب موسوعة عنوانها « إمتاع الأسماع فيما يشرى ويباع » ... !

أبو زيد — عجبا يابنى — ألا يشاركه فى هذه البراعة مشارك ؟

— نعم يا أبتاه ، هناك صفوةٌ من الرِّفاق ، من أتباع العملاق ، تذرع الأدب معه طردا وعكسا ، وتعالجه صحة ونكسا — ولكنه لايزال مع ذلك ، البارع الفارع — الأستاذ غير منازع !

— وهناك يا أبتاه نخبة من الأدباء ، تبارك الخلاق — تنافس العملاق ، فى سوق الأدب .

— من هؤلاء من أسال الحكمة من فم العجماوات ، ومنهم من بعث العظام الرفات ، من عالم الأموات ، إلى عالم الكائنات ... بسحر ساحر وقدرة قادر ... (!)

— ومنهم من جعل من « حوّاء » غذاءً شهياً للقارئين ، فسبحانَ مُبدع الكاتبين !

— ومنهم يا أبتاه من ركب رأسه ، فأعلنها حرباً على الكتّاب ، شديدةَ الالتهاب ، لايَخافُ ولا يَهاب ، يبدع كل يوم من العجب العجاب ، ما يُحيِّر الألباب ، ولله فى خلقه شئون ... !

أبو زيد — ثم ماذا يابنى ، إن مُكثى ها هنا قد طال ...

— وهنا الأراجيح يا أبتاه ...

أبو زيد — وماذا تكون هذه يابنى ...؟

— هنا الجانب الصاخب من السوق ، فيه الهرج والمرج ، وتخفيف البليَّة ، عن الصُّحبة الشقيَّة ...

أبو زيد — وما هذه الصُّحبة الشقية ؟

— ألم أقل لك يا أبتاه ، أنَّ فى سوق الأدب احتكاراً ، ورواجاً وبواراً ، وكباراً طَغَوْا على الصِّغار ؟ — هؤلاء الصِّغار ها هنا محتشدون ، يتلهَّون فى الأراجيح ، كالطيور المذابيح ...!

أبو زيد — واأسفاه يابنى ! واأسفاه — ثم ماذا ؟

— وهنا خيال الظل ...

أبو زيد — وما هذا يابنى ؟

— ألا تعرف خيال الظل يا أبتاه ؟ أمْسَاخٌ تحاكى الآدميين ، يطلقُها باغ من كمين ، تروى قصَّة قتال ، أو تبثُّ شكاية حال ، أو تمثل شجار نساء ورجال ، مُلَحٌ يقصد بها التنبيه ، ودعابات يرجى بها الترفيه ، عن النفسِ المكدودة ، البائسة المنكودة ... كانت بالأمس متعة السلاطين — فغدت فى أيامنا سلوة الملايين ...

أبو زيد — وما حاجتهم إليها فى سوق الأدب يابنى ؟

— إنها اليوم ملهاه ، عن أفاعيل البُغاه ، ومسلاه ، عن أباطيل الطغاه ..

أبو زيد — ثم ماذا يابنى — عجِّل ... !

— وهذا صندوق العجب ... فيه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، جمع فأوعى ، وإدهش فاسترعى ... صورٌ تدار ، ليل نهار ، جملٌ يطير ، وجملٌ يسير ، وعملاق عجوز ، ألاعيبه تجوز ، وأقزامٌ مناكيد ، كالأتباع العبيد ، يلتفُّون حوله ، ويسمعون قوله ... هذا هو العملاق ، كبير الرفاق ، وهذه عزيزة ، وهذا يونس وهذا الزيرىُّ سالم — هنا الحُطيئة ، وهنا جرير ... هنا

أعلام الأدب ، وهنا صعاليك العرب ، أنماط وأخلاط ، سلكها سالك ، محب للمال متهالك ، يجوب المهالك ، ويسدّ المسالك ، وأنت أيها المتفرّج فى صندوق العجب ، هالك أىّ هالك ، مالك مسلوب ، ولبك مخلوب ... مما ترى وتسمع ... !

أبو زيد — عجبٌ يابنى ، عجب ... !

أهذا سوق الأدب ؟ بئس المراد وبئس الطَّلب !

عد بى إلى حيث الباب ... وأسرع بى فى العودة ما استطعت ، فقد زاد حنينى إلى الآخرة ...

— على رسلك يا أبا زيد !

— إن هى إلا بضع سويعاتٍ أنفقتَها فى سوق الأدب ... فما إسراعُك، وحنينُك والتياعُك - إلى الدار الآخرة ؟ !

أبو زيد — عُدْ بى مسرعاً يابنىّ ... عُدْ بى مسرعاً ، لا تَلْوِى على شىّ !

° ° °

ثم دَرَجْنَا معا إلى باب السوق ، وحيّيْنا العملاق ، تحية الفُراق، وخلَّفناه ، حيثما لقيناه - بباب السوق ، يدخل الصحاب، وينهر الأغراب ... وسلكنا سبيلنا إلى الخلاء ، حتى أدركنا المقابر ... وتفقدنا سبيل إلى عالم الأموات ، فاذا بقبر قد فَغَرفاه ، تقدم الشيخ إليه ، ودلِف بقدميه ، فانطبق فمه عليه، وتوارى عن ناظرىّ ... وإذا به فى لمحة عين — فى عالم الأموات، وقد زايل دار الفناء إلى دار البقاء ...

° ° °

وأحسست لفحةً من الهواء البارد غمرت رأسى — فأفقْتُ ، وأدركت أن ذلك كله لم يكن إلا أضغاثُ الأحلام ، وأهاريف الكلام ...

رحم الله السروجىَّ أبا زيد ، لقد كان الرجل فى مجاله أستاذاً لم يفطن إليه أحد ... لقد ثوى على براعته ... كسير الخاطر ، حسير النفس ، يرثى الأدب ورجاله ، ويندب من فرط الكساد حاله ! مضى وهو يقول فى خفوت أسيف ، وبال كسيف :

فلو بلوتم عيشتى فى مطعمى ومشربى
لساءكم ضُرى الذى أسلمنى للكُرَبِ
ولو خبرتم حسبى ونسبى ومذهبى
وما حوت معرفتى من العلوم النخبِ
لما اعترتكم شبهة فى أنّ دائى أدبى
فليت أنى لم أكن أرضعت ثدى الأدب
فقد دهانى شؤمه وعقّنى فيه أبى !

رحم الله السَّروجىَّ أبا زيد ، وخفّف من لوعته فى قبره ... لو أن له فى أيامنا رجعة ، وفى ديارنا نجعة ، لكان أستاذ الأستاذين ، وشيخ المتحدثين غير منازع ! .. عظم الله أجرنا فى أبى زيد ، فقد احتسبناه وديعة فى ضمير الزمن — وهان فيه المصاب ، لما غاب ...

ولكل فجيعة فى الوجود عِوَض ، والدهر يسلب ويعطى ... سَلبَنا أبا زيد ، وأعطانا العملاق — الذى ما بعده عملاق ولا قبله عملاق !

° ° °

وأنتم أيها المحدثون من الأدباء ، عظم الله أجركم فى فجيعتكم ... !

إن فى سوق الأدب تجارة لا بيع لكم فيها ولا شراء ... !

فموتوا ميتة أبى زيد ، فى خفوتٍ أسيف ، وبال كسيف ... !

وأقيموا للعملاق تمثالا ، وضعوه فى المجاز المؤدى إلى السوق ... وأشيروا إليه بالبنان ، وقولوا هذا أستاذ الأوان ، صاحب الطيلسان ، أبو زيد هذا الزمان

غيبة مرتحل !..

(١)

السَّروجىّ فى سوق الهرج !

غاب السروجى عن ناظرىّ ، منذ فغر القبر فاه — فتقدم الشيخ إليه ، ودلف بقدميه — فانطبق فمه عليه . . .

وقد كنت أعلم أنه مرتكب أشدَّ الأوزار ، حين غافل عزرائيل — ولاذ بالفرار — فكيف لقى الرجلُ عزريل . وماذا كان من اعتذاره ، عن مروقه وفراره . . . ؟ !

* * *

لست أنكر أن بى شوقا إلى لقاء السروجىّ لا يعدُ له شوق ، وأن بنفسى حنيناً إليه لا يماثله حنين . . . ذلك أنى مكلوم تروقه الألاعيب ، ومهموم يهشُّ للأكاذيب . . . وقد كنت ودّعت السرور حين ودّعته ، وسرعان ما عاودنى الاكتئاب ، فلم تعد تجدينى صحبةُ الصحاب ، وملازمة الأتراب ، فأزمعت من فورى الاغتراب . . .

* * *

وليست الغرُبة فى ذاتها بالأمر اليسير ، على كل من ألِفَ الدّار ، وأحبّ الاستقرار ، ولكنها هانت عندما ذهب الصديق ، وعزّ الرفيق . . .

ركبت متن الريح إلى العراق ، تعرونى هزّة المشتاق ، أعلل النفس بالآمال الكبار — أنى إلى وطن السّروجىّ ذاهب - أرى داراً آوته ، وأرضاً

حَمَلته ، وسماءٌ أظلّته ـ أرى مَروج والبصرة وبغداد ، وأنظر المسارح التى تقلب فيها السَّروجىُّ طفلا ، وحَدَثاً ، ويافعا ، ثم شيخاً كهلاً مثقلا بالأوجاع ، يؤثر التَّجواب ـ على العيش فى الأرض اليَبَاب . . . !

* * *

وفى دار السلام[1] ، وفى شارع الرشيد ، الجادّة[2] الوحيدة ، ذات الحركة الدائبة ، لم ألمح من معالم الماضى ما يبهج النَّفس . . . فسبحان مغيّر الأحوال ! . . .

ودلّنى صديق ، عند مُفترق طريق ، على سوق يسمّيها العراقيون اليوم . . . « سوق الهَرَج[3] » .

فى سوق الهرج أخلاط من الناس ، وأشتات من المعروضات ـ غنىٌّ وفقير ، وبائع وشار ، ومبتئس وجذلان ، وكاسب وخاسر . . .

فيه من أخلاط المعروض ، ما لا يدخل فى حصر ، ولا يطرأ على بال . . .

فيه القديم والجديد ، والطارف والتليد ، والتافه المفيد . . . !

والحركة فى سوق الهرج دائبة سحابة النهار ، لا تفترُ ولا تضعف ، حتى تؤذن الشمسُ بالمغيب . . .

فإذا مال ميزان النهار ، وأوشك الليل يسدل الأستار ، خفّت الحركة فى السوق ، وبدأت أخلاط الناس تأخذ سُبُلها منصرفةً من سوق الهرج إلى حيث تريد . . . كلٌّ بما اقتنى ، وكل بما ابتاع . . . فريق كاسب ، وفريق

---

(١) بغداد (٢) الطريق

(٣) سوق الهرج فى بغداد هى « سوق العصر » فى مصر .

خاسر، وفريق ثالث محزون، لم يهتد فى يومه إلى بُغيته، لنقص فى المعروض، على كثرته، أو لعلة مستحكمة من داء ذات الجيب . . .

فإذا ما خيّم الظلام، غُلّقت الأبواب، وأقفرَت المسالكُ، وخوَت الدُّروب — فلا ترى فى نواحى سوق الهرج ضوءًا مشتعلا، ولا تسمع فيها وقع أقدام تسير . . .

* * *

سوق الهرج صورة مصغّرة صادقة لهذه الحياة التى نعيشها . . . !

حركة دائبة صاخبة يعقُبها سكون، وحياة عاجّة مضطربة يتلوها موات . . . وضوء أبلج يعقبه ظلام . . . !

رائحون وغادون ؛ وكاسبون وخاسرون ؛ وجادُّون ولاهون ؛ أغنياء وفقراء، بيع وشراء، أخذ وردّ ، وَصلٌ وصَدٌ ... ملابسات ومفارقات ؛ وشىء لا ينتهى، من الأشباه والمتناقضات . . . !

كل شىء فى سوق الهرج : يشبه مثيلاً له فى سوق الحياة !

* * *

أحببتُ سوقَ الهرج — حُبّى للحياة . . . !

ورُحتُ كلّما خلَوتُ من شواغلى — أجوس دُروبه، وأتفقَّد نواحيه ... أتأمل فيه أخلاطَ الناس وهم يبيعون ويشترون، ويقلّبون أشتاتَ المعروضات .. لكل غايةٌ يظلُّ يكتُمها ولا يبديها — حتى يقع على ضالّته، ويهتدى إلى بغيته . . . !

عندئذ يمكر المشترى بالبائع ، يبدى المشترى عدم الاهتمام بالشيء المبتاع . . لأنه — كما يدَّعى — من سقط المتاع ...!

والبائع أشدُّ يقظة وأعظم مكراً ، مشتط بدوره فى التقدير ، مستوثق من حاجة صاحبه إلى السلعة المنتقاة . وتتم الصفقة ، وأنت لاتدرى : أيهما الكاسب ، وأيهما الخاسر . . . !

كل شيء فى سوق الهرج ، مهما تفُه أمره قيِّم لامحالة ... لكل سِلعة مشترٍ ، ولكلّ سِلعة بائع ، ولكل صفقة ميقات ...

* * *

وبينما أنا ذات يوم أجوس السوق ، جَوْسَ المَشُوق ، إذ بى أرى قوما قد تكاثروا حول شيخ خَلِق الثّياب ، بادى الاغتراب ، مشعّث الشعر ، يعلوه التراب ، كمن لفظه القبر ، أو قَذَف به اليَباب !

الناس من حوله يتهامسون ويتغامزون ، ويحدّقون فى وجهه ويتفرّسون ، والشيخ مشدوهٌ بما يرى ، مأخوذ بما يسمع . . .

شَقَقْتُ طَريقى فى الزِّحام ، حتى دنوت من الوافد الغريب ، فاذا به الشيخ السّروجى بعينه . . . عجبتُ من ملاقاته ! وقد كنت ظَنَنْتُ أنى ودّعتُه الوداعَ الاخير ، حين خرجت به من سوق الأدب ، وأسلَمْتُه ، بأوزاره وأوضاره — إلى منكرٍ ونكير . . .

تقدمتُ إليه ، أهّلتُ وسهّلت ، ورحّبت بالسّروجىّ ، ومَدَدْت يدى مصافحاً — فمدّ يده ، شددت عليها شدَّ الصديق ، ونظر الشيخ نظرة تحقيق ، وتدقيق . . . زرّ جفْنَيْه على مُقْلَتَيه ، وتفرّس فى وجهى ، وجمع شارد أفكاره — فذكرنى !

وزالت عن الشيخ وحْشَةٌ كانت تعروه ، هى وحشة القادم بعد طول غياب ... أُنس إلىّ أُنْسَ الغريب ، عندما يقع على رفيق — فى طريق ...

وصمت الجمعُ هُنيهة ، ثم كثر المرَج ، حين عرف فى سوق المرج ، أن الوافد العجيب ، هو أبو زيد ، داهيةُ سَروج .. عاد إلى الحياة ، وهبط دارَ السلام !

وقربتُ بفمى من أذنه ، أسأل فيم وفوده على سوق المرج ، وكيف كان انفلاته ، للمرة الثانية — من الدار الآخرة ...؟!

فنظر السَّروجىّ إلىَّ نظرة عاتب ، أغفل شطراً من السؤال ، وأجاب على شطره الآخر — فقال :

— أبحث يا بنىَّ فى السوق عن العكازة والجِراب — فقد طال تفقُّدى لهما ، وأنا أهمُّ بالقدوم ، فلم أعثر لهما فى أى مكان — على أثر ...

وسَرَى فى بغداد خبرُ السَّروجىّ ، فخَرَجَتْ عن بكرة أبيها ، تتزاحمُ بالمناكب ، لترمُقَ الشيخَ الذى ذاع صيته فى الخافقَين ، حتى سُدَّت من الزحام المسالك ، وتعذَّرت الحركة — ولم يعد فى مُكنة إنسان أن يسير ..!

* * *

وضاع السَّروجى ، أو كاد يضيع ، فى غَمْرةِ الزِّحام ، وأوشكت تزهقُ منه الروح ، وتذهب الأنفاس . فأشفقت عليه ، وأشرت على نفر أن يرفعوه على الكواهل — فرفعوه !

وتوقَّع القومُ أن يقوم السَّروجى فيهم مقامَ الخَطيب ، يفصح عن نفسه ويُجيب .

واشتد الضجيج ، وكثر العجيج ، وعلت الأصوات ، تطلب إليه

الكلام ... والشيخ صامت مشدوه، يقلّب النظر فى الجموع ولا ينطق، فزاد إشفاقى عليه، وقمت من فورى مقامه، ألتمس له العُذر، وأسأل به التلطف — حتى نُحِلّه مكاناً يستريح ...

فأشار قومٌ بحمله إلى القاعة الكبرى فى باب المعظَّم، قِبلَةَ التعظيم، ومكان التكريم، وأشار آخرون بدار الإذاعة، يتحدَّث منها السَّروجىُّ، فيستمع إلى حديثه — كل أهل العراق...

واستقرّ الرأى وسط الصَّخب واللَّجب.. على حمله إلى قاعة الباب. وتناقلت الحشود، ما استقر الرأى عليه، فولّت وجوهها شطر شارع الرشيد، وتحركت متراصَّةً، زاحفة فى بطء شديد، إلى حيث القاعة الكبرى.. فى باب المعظم...

احتفالٌ بغير ميعاد، لم تشهد مثلَه بغداد !

موكبٌ حافل رهيب.. !

وزائرٌ مفاجىء عجيب...!

(٢)

تكريم السَّروجىّ فى باب المعظم

حُمل السروجىّ إلى القاعة الكبرى — فى باب المعظَّم، وهرع عِلْيَةُ القوم متوافدين، ولم تتَّسع رحبات القاعة لغير بضع مئين، منهم صفوة الأدباء، وخيرة الشعراء...

وسارعت الإذاعة العراقية إلى إشاعة التكريم . . .

واطمأنت الجموع إلى الاستماع — فى المذياع ، إلى ما سوف يقال ، من كلمات الترحيب ، بالوافد العجيب . . وعدت الألوف إلى البيوت ، وجلست تشنف الاسماع ، بما يذاع ، فى استقبال بطل المقامات ، وصاحب البلاغات .

***

وساد القاعة صمت رهيب . . ووقف ألمعى من أدباء العراق ، فصفقت القلوب ، واشرأبت الأعناق ، وحدقت الأبصار ...

وقف الخطيب ، وطال الوقوف ، وطال الانتظار — وكأنما انعقد لسانه ، وغاض بيانه !

ثم تنحنح الخطيب ، وفتح الله عليه — فقال :

أحقًا مانرى ؟! أحقًا ما نشهد ؟!

أهذا أبو زيد ، بطل المقامات ، وصاحب البلاغات ؟

إنى لأقسم ياقوم بالطور ، واليوم المسطور ، إن هذا ليوم النشور !

[وسكت الخطيب ، وطال السكوت ، حتى برم القوم ، وكثر اللوم ، وشاع الغمز واللمز ، ثم ساعفته القريحة فقال :]

— أيها الأديب فى إهابه ، للعالم فى أثوابه ، العابد فى محرابه . . . بك شرفت اليوم دار السلام ، ومحجة الأنام ، عاصمة الرافدين — بغداد !

— أيها الأروع الأشم ، والبحر الخضم ... هذه نفحة من نفحات الأيام ، ولفتة من لفتات الكرام ...

أيها الأديب الأريب ، والعالم النجيب ، أهلا حللت وسهلا نزلت !

— وأنتم يا أهل بغداد : لقد خُصِصتم دون أهل العراق — بهذا التلاّق..

فطوبى لكم ونُعْمَى ! — إنه شرف والله ، ياقوم ، لو تعلمون عظيم !

[ثم أخلى الخطيب مكانه ، ليقف لوذعى آخر يقول :]

— مرحباً أبا زيد ! مرحباً ياأديب العراق . ! ويابُغْيَةَ المشتاق ... !

مرحباً بطريفة الأوان ، وأعجوبة الزّمان ، مَنْ تسامعت بذكره البلدان ، وهَفَتْ إلى حديثه الآذان ...

مرحباً بأبي زيد ، حاذقِ الأسمار ، وطاوى القِفَار — المُقْبل بعد إدبار ..!

— يا أهلَ العراق : هذا من غُصتم فى المقامات، تَقْفُون أثرَه ، وتستَجْلُون خَبَرَه . . .

هذا أبو زيد — بعينه وفَمِه ، ولَحْمِه ودَمِه . . . أنْعِمْ بمَقْدمه . . . !

كرِّموه ما وسِعكم التكريم ، وعظِّموه ماوَسِعكم التعظيم !

وانتم معشر البؤساء ، من الأدباء ، هذا زعيمكم يعود ، فى اليوم الموعود ، خذوا من مثاله العِبرة ، والدّرسَ والخِبرة .

لقد عاش بالكفاف.. ومات بالكفاف.. وبَرَعَ حتّى مَلَكَ من القلوب الشغاف ..

فاقنعوا يا أصحابَ الأحلام ، وحملةَ الأقلام ، بالعيش الكفاف ، والبطون الخِفاف ، والأجسام النِّحاف . . .

[ثم أخلى الوذعى مكانه ، ليقف أريب ثالث يقول :]

— هذا من قضينا العُمر نتشوّفُ آثاره ، ونتقَصّى أخبارَه ...

نفض عن نفسه غُبارَه ، وأَمَّ دارَه ...

املئوا منه العيون ، وكحّلوا بمنظره الجُفون ...

— زيارةٌ ياقوم عابرة ، وبرهةٌ والله ساحرة ، وفرصةٌ أَمَمُ الحق نادرة !

سَلُوا السَّروجيَّ ، إنْ كان حقاً ما نَرى وحقًّا ما نشهدَ — ففيم الوفود ، فى اليوم الموعود ، سَلُوه ؟!

[وانسلت الخطيب ، وخلا المنبر ، لصاحب البلاغات ، بطل المقامات أبي زيد]

ooo

وساد صمتٌ رهيب ... . !

وأحدقت الأبصار بالشيخ الوقور ، الوافدِ من القبور .

وانخلعت القلوب ، سقَط بعضها فى البُطون ، وهوى بعضها إلى الأقدام .

وارتعدت الفرائص ، واقشعرَّت الأبدان ...

وصَعدت الأرواح إلى الحلوق ، وكاد بعض الناس ، يلفظون الأنفاس ...

وكنت لا تسمع وسط السكون الرّهيب ، غير همَسات وتمتمات ، هى استعاذات المستعيذين ، واستغاثات المكروبين ، من أفعال الشياطين ...

وزاد الهلَع ، وشاع الفزع ، حين همَّ السَّروجيّ بالقيام — فخارت قواه ، وكاد يسقط فى مكانه ، فأسرع إليه المسرعون ، ساعفوه فنهض ، محْدُودب الظهر .. تكاد تلمس لحيتُه ركبتَيه ...

وما إن همّ عَلَى ساقيه ، حتى ألقى السلام ، على القوم الكرام ، وقال :

— السلام عليكم يا أهلَ العراق !

— من محبٍّ مُشتاق ..

— وَوَالهٍ تَوَّاق ...

— برَّح به الفراق ... !

— السلام عليكم أهل بغداد !

— آتيكم في يومي — بلا ميعاد ..

— فلا تكثروا السؤال

— والقيلَ والقال ...

[أصوات مدوّية : عفواً أبا زيد ، عفواً أبا زيد !]

* * *

هزّني إلى الوطن الحبيب ، والمنبتِ الخصيب ، شوقُ المستجيب .

فجئت أشهد مغانيه ، وأستجلي مجاليه ...

جئتُ أرضاً نشّأتني ، وديارًا علّمتني ...

— جئت أرى مسقطَ الرأس مُروج ..

حبّذا نَفحةُ ريّاها ، ومرآها البهيج !

— جئت أشهدُ البصرة ..

ولِمَنْ ينزاحُ عنها .. زفَراتٌ ونَشيج !

— جئت أرى بغداد ..

ليت يومي حُمَّ لمّا حُمَّ لي منها الخُروج !

— جئت أطوي شوقَ المشتاق ، إلى العراق ... فهل مِن صديق ، وخِلّ طريق — أجوب معه الدّيار ، وأشهد الآثار ... ؟

[أصوات مدوّية يرتج لها المكان: مرحى أبازيد ، مرحى أبازيد ! كلنا صديق ورفيق، وجوّابٌ ، وخلُّ طريق ..]

— جئت أَقرِنُ اليومَ بالأمس .. فهل من صديق ، وخِلّ طريق ؟

جئت أَقْرِنُ يوم العراقِ — بالأمس القريب ...

فهل من صديق ، وخلٍّ طريق ؟

[صمت ... ...]

هل من صديق يقودني إلى مسقط الرأسِ سَرُوج ... ؟

بلدةٌ يوجد فِيها ٭ كلُّ شيءٍ ويرُوج

وِرْدُها مِن سلسبيل ٭ وصحارِيها مُروج

وبَنُوها ... ومغانيهم ، نجومٌ وبروج

حبّذا نفحة ريّا ٭ ها ، ومرآها البهيج

وأزاهيرُ رُباها ٭ حين تنجابُ الثّلوج

مَنْ يقودُني — إلى جنّة الدّنيا سَروج ... ؟

[صمت ... ...]

٭٭٭

وبدت على السّروجي الواله أمارات الإعياء ، وتطلّع إلى من يعينُه على القُعود ، فأسرع إليه المسرِعون ... فأجلسوه ، وتكاثر الناس حولَه ، وساد الهرج وكثر المرج .. ماذا هم قائلون عن مسقط الرأس سَروج ؟ — فأين الآن من معالم الدّنيا — سَرُوج ، ؟!

٭٭٭

لم يستجب إلى نداء السَّروجىّ أحد . . . إذ ليس ثمّة فى العراق من يعرف سَروج ، ذات الينابيع والمُروج ، من كان بها أبو زيد يمُوج (١) ...

فبرَح بالرَّجُل الكَمَد ... عند ما لَمْ يُسارِع أَحَد ، فأَوشَكَ يُفْلَج من شدّة الالتياع(٢) ، والعَجب والارتياع ، من صمت الصامتين ، وجحود الحاضرين ...

وأهاب الرَّجل ، ثم أهاب ، فرأى من العَجَب العُجاب ، ما يُحيِّر الألباب ...

رأى جَمْعاً واجمين ، ليس فيهم من ينطق أو يبين ، فتنفّس الصعداء مراراً ، وأرسل الدمع مدراراً ، وصعّد النظرات ، وأرسل الزَّفرات ، حتى بلغ منه الإعياء مَبلَغَه ، وكاد يَسْقُط فى موضِعه — فهمّ إليه من همّ ، أدركوه فأجلَسوه ، وطيّبوا منه الخاطِر ، بالترَحُّم على ما فات ، من الأيام الخاليات . . . !

وكَثُر فى القاعة اللَّغَط ، وحار القوم ماذا يفعلون . . بالضَّيف الواله المُستهام ، بمسقط الرأس سَرُوج ... !

وقمت من فورى مقامَ الخطيب ، أسأل للرجل السَّلوان ، على ما كان من تغيُّر الأحوال ، وتبدُّدِ الآمال ...

واستأذنت الجمع فى ملازمة الشيخ واصطِحابه ، ومرافقته فى تجوابه فأذنوا . . .

---

(١) يتردد (٢) الشوق

وهَمَمْنَا بالقيام ، فهمَّ الحاضرون .. وأخذنا بيده فنهض ، خائر القوى — لا تكاد تحمله رجلاه !

وتهافتَ النَّاس عليه .. كلٌّ يدعوه إلى داره ، يستريح من العناء ، ويفيق من الوعثاء (١) ، فشكَرْت بلسانه دعوَةَ الدَّاعين ، وسَعْيَ السّاعين ...

وطاب للشيخ الوقور ، الوافد من القبور ، أن أكون مضيفَه ، وصديقه وأليفَه ، ما بَقِيَ في بغداد ، حتى يَحِينَ الميعاد — فيهتف به هاتِف عزرائيل ، فلا يكون ثمَّـةَ استقرار ، ولا تمهّل ولا اعتذار ...

وكنت أعلم أن مُكْثَه لايطول .. ولابُدَّ له أنْ يجول — يُلقِي نظرةً عجلى ، على دار السلام ، ومحجّة الأنام .

فخرجنا به وسْط الزِّحام من قاعة الباب .. أركبْناه السيَّارة ، وانطلقنا به إلى حيث نُقيم ... أنزلناه المنزِلَ الكريم ، وأحطْناه بالتَّعظيم — حتى نشِطت قُواه ، وغدا قادراً على استقبال الزائرين — من عِلْية القوم الأكرمين .

وفي البيت استراح ، سُرِّيَ عنه الهمُّ وانزاح ، أكَلَ أكْلَ المنهومين ، واستطاب طعوم المأكول ، وقَرَنَ ماضي البُطون بحاضرها ... وذمَّ الفُضول ، ورَوَى من قصص الطَّعام ما أثار الضَّحِك والعجَبَ .. قصَّ نزُولَه واسِط ، وكيف صَرَعَ فيها الدَّهماء ، بإطعامهم الحَلْواء ، وكيف جازت فيها ألاعيبه على أهل الخان ، أكل عقولهم وسلب مالَهم — ومضى . وكان يَشْفَع الرِّواية بالاستغفار ، يطلب عَفْوَ القهَّار ، عمَّا كان ، في سالف العَصْر وغابِر الأوان .

---

(١) مشقة الأسفار

وخشيت عليه الاستطراد ، وفواتَ الميعاد .. كنتُ أشفق عليه من طول البقاء .. مخافةَ اللّقاء — لقاءِ عزرائيل — يوم يعود السّروجيّ إلى مستَقَرِّه ومثابَته ومقرِّه — فى الدار الباقية .

أشَرْت عليه بالقيام ، فقام ، سلّمَ على الصّحاب ... وأزمعَ الاغتراب ، استودعَهم الله واستودعوه ، سألوا له المَغْفِرة ، والتوبة والمعذِرة ، فى الدّار الآخرة ...

انطلقتُ به فى بغداد — يسأل وأُجيب ..

سأَل عن الرّصافة والكَرْخ ، عن القُصور والجُسور ، فطَوّفتُ به فى المكان — نتفقّد الماضى — فلم تقع أنظارُنا منه على شىء !

سأَل عن السُّور العتيد ، وكان يخاله لا يبَيد ، فقلتُ سبحان من أبلى الحديد ، لقد تهدّم السُّور وزال ، كما تزول الجبال ... !

سأل عن دار الحِكمة ، وخزائن الكتب ، ومدارس العلم القديم ، فقلت عفَّ عليها الدهر المجتاح ، فذهبَتْ أدراجَ الرِّياح ..

سأل عن شتات الأزياء ، وتبايُن الأهواء ، بين سُكان بغداد ... فقلت هذا تراكُم الحَضارات ، وتنوُّع الثّقافات ، واختلاف النّزعات ، بين سكان البلد الواحد ، من توالى الكروب ، وتناوُب الخُطُوب ...

سأل عن سفور المرأة ، وهجْر الخُدور ، وارتداء العباءة وكشف النُّحور !.. فقلت هذا فقدانُ التّقاليد ، وطُغيان مدنيّة الغَرْب ، ونُزوع ربّات الحِجال ، إلى المساواة بالرّجال ...

سأل عمّا يعرو وجوهَ الحِسان ، من كَدحات وتشويهات ، على الجباه والوَجَنات ، فقلت : هذه والعياذ بالله — هى الحَبّات ، حبّات بغداد ... حار فى أمرها الأطبّاء ، فغدت الداءَ العَياء ... والآفةَ الشوهاء . !

يعرفها العراقيون والعراقيات باسم أخوات بغداد ، ويرونها سمات جمال ... وملاحةٍ وكمال ... فليس من بغداد ، من ليست له أختُ بغداد !

ثم هبّت زوابعُ هوجٌ صَفْراء ، ملأت الجوّ بغبار دقيق فى لون الرمال ، وجَدَ سبيله إلى الأنوف ، والحُلوق ، والرئات ، ضاقت له الأنفاس ، فثقُل الكلام ، وأشرفَ صوتُ السّروجىّ على الاحتباس ، وفى كثير من الصُعوبة قال :

— وما هذا يا بُنَىّ ؟

قلتُ : هذا عَجاجُ بغداد ، تُعرَف به اليومَ من دون عواصم الأقطار ... هذا غُول الصَّحراء ، ماله اتّقاء ... حتى تكثرُ الزُروع حولَ دار السّلام .

وكنّا قد تركنا المدينةَ إلى العَراء ، فوقع نظر السّروجىّ على آكام من التراب أشبه بالحواجز والجُسور — فقال : وماذا تكون هذه يا بنىّ ... ؟

قُلت — هذه سدادُ بغداد .

قالَ — ومَا السَّداد ؟

قُلت — حواجز يتّقون بها انسِيابَ دجلة على الدُور ، وعُدوانه على الارواح ...

قال — وهَل فاضَتْ مياه دجلة عن حاجَة الزُروع ؟ !

قلت — اخرج بنا إلى الخلاَء ، يُجِبكَ العَراء ... فخرجنا من بغداد

مُغَرِّبين، سَعْياً على الأقدام، فى إقدام — فبلَغْنا بعد حين إسْكَنْدريَّةَ العِراق ...

قال — أىُّ مكان هذا؟

قلت — أفتسأل، وأنتَ صاحِبُ المكان؟!

قال — لقد عنَّ النِّسيان، علَى ما كان ... رحِمَ الله من أفصح وأبان — أىُّ مكان هذا المكان؟

قلت — هذه إسْكَنْدَريَّة!

أفَنَسِيتَ الاحتِكام، إلى قاضيها الهُمَام — يوم دَبَّ الخِصام، بين السَّروجىِّ وزَوْجه، تَصفُه بالإملاق، والرِّياء والنِّفاق، وتَسُبُّ الأدَبَ وذَوِيه، وتَذُمُّ معانِيه، وتسأل القاضى للبنين والبنات، الرِّفقَ والالتفات ...؟

قال — مخطىء أنت يا بُنىَّ، ماهذه الإسكندريَّةَ أردتُ .. ولا إليها قَصَدْتُ. .. فاحذَرْ يا بُنَىَّ التَّخليط — حذارِ أن تَخْلِط إسكندريَّةَ العراق، باسْكَندريَّة البَحْرِ الوَسيط ...

قلتُ — عَفْواً يا أبا زيد، فلَسْتُ بالمُخطىء الوَحيد — فالنَّاس مثلى يَخْلِطون ...

قال — فلتشعْ عنّىَ الصَّواب ...

قلت — سَمْعاً!

قالَ — وما هذا الخَراب؟ لقد كنَّا نجُوبُ، بين زُروع خُضْرٍ ومُرُوج، يحلو إليها الخُروج ... فما الَّذى غيَّر وبدَّل، وأدالَ وأزال ...؟

— أغُولٌ مِنَ الخَلْقِ، أمْ غُولٌ مِنَ الزَّمَن؟!

قلت — هُما الغُولانِ مُجتمعان ! غولُ النَّاس وغُول الزَّمان ..

قال — من طبيعة الزّمن أن يَغُول — فكيف بالإنسان ؟! وأىُّ ناسٍ هؤلاء ؟

قلت — هُم المغُول أو التّتار ...

قال — وَمَا لقَومى لم يُجَنِّبوا الدّيار ، هذه الأخطار ؟

قلت — لقد دافعوا ماوسعهم الدِّفَاع ، ثم غلَبَ العدوُّ — فشرى وبَاع ، خرَّب الضِّياع ، وأهلَكَ المتَاع ... !

قال — ألَمْ ترتفعْ بعدُ يدُ التّتَار ، عن هذه الدّيار ؟

قلت — لقد هلَكَ التّتَار منذُ زمان — فماذا تقصِد وماذا تُريد ؟

قال — لَقد ظَنَنْتهم باقين فَمَعذِرَةً يابُنَىّ ... !

ثم أردَف فقال — وما عذرُ قَومى ، وقد ارتفعتْ يدُ الطُّغيان ، منذُ زَمَان ... ؟

قلت — لكل زمانٍ طُغاة ، عُتَاةٌ بُغَاة ، يتغفّلُون الأنَام ، يُحِلُّون الخِصام محَلَّ الوِئام — ليَفُوزوا بالْغَنيمة ، فوزَ اللِّئَام ... !

قال — وماالغنيمة ؟ إنى لا أرى غير ماء مُنساب ، وأرضٍ خَراب !

قلت — إن لهم مآرب أُخْرَى غير الأرض والماء ، والزرع والنَّماء !

قال — وهل جاوَز التّتار ، هذه الديار — مُغرَّبين ؟

قلت — نعم لقد بلغوا الشّام ، مُحطِّمين مُدمِّرين ، فلقيَهم هناك ملوك عِظام — أوقفوا التّخريب ، والسَّلْبَ والتّعذيب ، فنَجَتْ من تُراث الأقدمين ،

فى غَرْب العَالمين ، بَقِيَّةٌ من عَناد ، وأثارةٌ مِن سُلْطان ...

قال — فأين هى الآن ؟

قلت — أخنى عليها الذى أخْنَى على لُبَد ...

قال — أوَ شَأنُ النَّاس فى الغَرْب ،شأنُ أهل الرَّافِدَين .. ؟

قلت — كلُّنا سواءٌ فى العَيْبِ والشَّيْن !

لقد امتدَّت إلينا يدُ فى ديارنا الطُّغاةِ ، قبل بُلوغِها العِراقَين ..

قال — وماذا أنتم فاعلون ، أيُّها الغافِلون ؟

قلت — لا سبيل إلى الصَّلاح ، والنَّجاح والفَلاح — بغير الوئام ، والاندماج والانسجام ...

قال — وما الذى يحُول ...؟

قلت — اختلافُ المنازِع والأهواء ، باختلاف المواطِن والأنحاء !

قال — هل مَنْ عِلية القوم ، من أصحاب الكياسة ، والرأى والسِّياسة ، مَنْ يُؤلف القلوب ، ويحارِب العيوب ؟

قلت — تجمعُنا اليومَ ، والحمد لله جامعة .

قال — أهِىَ جامعة القلوب ؟

قلت — لا ، هى جامعة السِّياسة .

قال — وهل تعمل على تأليف القلوب ، وتقريب الشعوب ؟

قلت — لا أدْرى !

قال — لقد عِيل يابُنَىَّ صَبْرِى !

مَلَلت البَقَاء ، وأزمعتُ الرّحيل …

قلت — أوَ مُسَارعٌ حقّاً أنت إلى الرّحيل ؟

قال — إنى أخاف عزرائيل وإسرافيل وميكائيل …

لقد طال المُروق ، وطالَ العِصيان …

ولم يَبقَ غيرُ الغُفرَان ، من القادرِ المنّان …

وداعاً يابنىّ وداعاً !

* * *

قلت — بالله إلّا بقيتَ لحظة — أسألك فيها نصيحة ذَهبيّة ، تنفعنى فى دُنياى !

فهلّا نفحتَنى بدُرّة من دُرَرك الغاليات . . . ؟

قال — خُذ منّى ، وتلقّ عنّى . . . !

أنا مُعلّم الأجيال — علّمنى أبى ؛ وثقّفنى أبى ؛ أن الحياة ضجيجٌ وعجيج ، وخفقُ بنُود ، وشتاتُ ألوان ، وزمرٌ وطبلٌ ، وأثوابٌ قِصار ، الصّمت فيها موت ، والجلَبَة فيها حَياة . . . !

فالْبَسْ للدنيا لبُوسَها إن أردتَ المتاع . . .

خذ منّى ، وتلقّ عنى . . . !

أنا معلّم الأجيال ، علّمنى دهْرى ، وثقّفنى دهْرى ، أن الطّبل والزّمْر ، والعَجيجَ والتّهريج ، هى السّبيلُ إلى امتلاء الكيس ، وجَنْى النفيس ، وصُحبة الأمجاد . . .

قلت — أعوذُ بالله — أمَا يزالُ السَّروجيُّ محيَّالاً (١) ، كما كان ... ؟ !

قال — استبنْ يابنيَّ نُصحي ، أو فاقنَعْ ، راضياً بالخذلان !

قلت — طبعٌ جريتُ عليه ، أفقادر أنا على التحوُّل عنه . . . ؟

قال — تطبَّعْ يابُنيَّ ! تطبَّعْ ! فإن لم تشأْ — فاقنَعْ ! .

قلت — القناعةُ خيرٌ من الهَوان .

أسأل الله لك الغُفْران !

ومدَّ إليَّ يده مُصافحاً فطوَّقته بذراعيَّ ، أفرغتُ دمعي في شَعْرِه الأشعث المُبْيَضّ ، وغلبَني الإشفاق عليه — فذاب له قلبي ذَوَباً . .

ثم أسلمتهُ إلى المجهول ...

فولَّى مُتعثِّراً في خطواته ، غارقا في أنَّاته ...

* * *

وداعا ، أيُّها السَّروجيّ — وداعاً !

لقد بَعُد السَّروجيّ ...

لقد غاب . . !

غاب إلى يوم الحِساب !

---

(١) المحيال : الكثير الأحتيال

فهرس الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

جامعة الاسكندرية والنقل عنها وتأثر العقل العربي بعلومها

القومية المصرية الإسلامية (مرحلة التكوين)

مصر الخالدة (من أقدم العصور إلى العصر الحديث)

قصة الكتابة العربية (من سلسلة اقرأ)

مقترح لتيسير الكتابة العربية (مقدم لمجمع فؤاد الأول للغة العربية)

أسبانيا العربية (سياستها وآدابها وعلومها وفنونها)